# المكتُوبُ إلى علماءِ الهِنْدِ ومشايخِ هذه البلاد وغيرها مِن البلاد الإسلامية

## بِسْمِ اللهِ الرحمنِ الرحِيْمِ

الحمدُ للهِ الذي مَنَّ عَلينا بإرسال الرُّسل والكُتب، وجَعَل الأنبياءَ لِخيَام التوحيد كالطُّنُب، وقَفَّى على آثارهم بالأولياء ليكونوا كالأوتاد للسَبب. والصَّلاة والسَّلام على خير الرسُل ونخبة النخب، محمّد خاتَم النبيّين وشفيع المذنبين، وأفضل الأولين والآخرين، وآله الطاهرين المطهّرين، وأَصحَابِهِ الذين هُم آيات الحقّ وحُجّة الله على العالمين، وعلى كل عبدٍ من عباده الصالحين.

أمّا بعد فهذا مكتوبٌ كتبتُه إلى الذين أنعم الله عليهم بأنواع الكرامة، وهذّبهم بالعلم الكامل والمعرفة التامّة، وكَشَف عليهم سُبُلَ الاصطفاء والقُربة، وحَبَّبَ إليهم طُرقَ الانكسار والغُربة، مِن العلماء العاملين الراسخين المتوَغّلين، والفقراء المنقطعين المتبتِّلين، الذين جذَبهم الله إلى ملكوته، وأذاقهم حظَّ لاهوته، ورزقهم خشية عظمته، وسقاهم كأس محبّته، فلا ترهَقهم ذلّة الزَّلّة، ولا نكال المَعصية، وهم من المحفوظين.

وإنما نخاطبهم لجلالة شأنهم، وصفاء وجدانهم، وسَعة ظروفهم، وحلاوة قطوفهم، لعلّهم يُؤيَّدون من الله ويُلهَمون، ولعلّهم يفقهون ما لا فَقِهَ الآخرون، ويعلمون ما لم يعلمه المحجوبون. ولعلهم

يتدبّرون بالفراسة الإيمانية، ويتفكرون بالتقاة الروحانية، ويقومون لله شاهدين، ليكونوا حجّة الله على الظالمين المعتدين، ولينقطع معاذير المعتذرين الأفّاكين، وليَضْمَحلّ كل قول يُقال من بعد موتي، ولتستبين سبيل المجرمين. وإنّا ندعو الله أن يؤيّدهم ويلهمهم ويحفظهم ويعصمهم ويعطيهم حظ الصالحين.

ولما كان المقصد أن يتبيّن الحق الذي جئنا به لكلّ تقيّ وسعيد من قريب وبعيد، أُلقيَ في روعي أن أكتب هذا المكتوب في العربية، وأترجمه بالفارسية•، وأَرعَى النواظرَ في النواضر الأصلية، وأُوسّع التبليغ بالألسن الإسلامية، ليكون بلاغا تامًّا للطالبين.

فاعلموا يا معشر الكرام، وجموع أولي الأبصار والأفهام، أن الله قد بعثني مجدِّدًا على رأس هذه المائة، واختصّ عبدًا لمصالح العامّة، وأعطاني علومًا ومعارف تجب لإصلاح هذه الأمّة، ووهب لي من لدنه علمًا حيًّا لإتمام الحجّة على الكَفَرة الفَجَرة، وأعطاني ثمرًا غَضًّا طريًّا لتغذية جياع المِلّة، وكأسًا دهاقًا لعطاشى الهداية والمعرفة، وجعلني إمامًا لكل من يريد صلاح نفسه، ويحبّ رضاء ربّه، وجعلني من المكلَّمين الملهَمين. وأكملَ عليّ نعمه وأتمّ تفضّله وسمّاني المسيح ابن مريم بالفضل والرحمة، وقدّر بيني وبينه تشابُهَ الفطرة كالجوهرَين من المادّة الواحدة، ووهب لي علومًا مقدّسة نقيّة، ومعارف صافية

---

• *حذفنا الترجمة الفارسية في هذه الطبعة لعدم حاجة القارئ العربي إليها. (الناشر)*

جليّة، وعلّمني ما لم يعْلم غيري من المعاصرين. وصبّ في قلبي ما لم يُحيطوا بها علمًا، ونورًا لم يمسَّه أحدٌ منهم وجعلني من المنعَمين.

ومِن أجلِّ آلائه أنه استودعني سرَّه الذي يُكشف للأولياء، والروحَ الذي لا يُنفَخ إلا في أهل الاصطفاء، وأعطاني كل ما يُعطَى لأهل الموالاة والولاء، وصافاني ووافاني، وشرح صدري وأتم بدري، وأخبرني بأكثر ما هو مُزمِعٌ عليه في سابق علمه، وصبّغني بصبغة حُبّه، وهداني طرق إسلامه وسِلمه، وأخرجني من المحجوبين.

ومن آلائه أنه وفّقني لفعل الخيرات، وهداني إلى الصالحات الطيبات، وأجرى لطائف قلبي فأحسن إجراءها، وزكّى ينابيعها وماءها، وأتمّ نورها وصفاءها، وطهّر مجراها وفِناءها، وبدّل أرضي غير الأرض وجعلني من المطهَّرين.

ومن آلائه أنه وهب لي حُبَّ وجهه حُبًّا جَمًّا، وصدقًا أكمل وأتمَّ، وسألته أن يهب لي حُبًّا لا يزيد عليه أحدٌ من بعدي، فأعلمُ منه أنه استجاب دعوتي، وأعطاني مُنيتي، وأحاطني فضلا ورُحمًا، فالحمد لله أحسن المحسنين. الحمد لله الذي أذهب عني الحزن وأعطاني ما لم يُعطَ أحدٌ من العالمين. وما قلتُ هذا من عند نفسي بل قلتُ ما قال على السماوات ربي، وما كان لي أن أتكبّر وأرفع نفسي، إن الله لا يُحب المستكبرين، بل هذا إلهام من حضرة العزّة، وأراد من "العالمين" ما هو في زماننا من الكائنات الموجودة في الأرضين.

ومن آلائه أنه علّمني القرآن، ورزقني منه معارف تُجاوز الحدّ والحسبان، لأذكّر الغافلين المنهمكين في هموم الدنيا الدنيّة، وأُنذِر قومًا ما أُنذرَ آباؤهم في الأيام السابقة، ولأقيم الحجّة على المجرمين.

ومن آلائه أنه خاطبني وقال: "أنت وجيه في حضرتي. اخترتُك لنفسي". وقال: "أنت مني بمنـــزلة لا يعلمه* الخلق". وقال: "أنت مني بمنـــزلة توحيدي وتفريدي". وقال: "يا أحمدي، أنت مرادي ومعي. يحمدك الله من عرشه". وقال: "أنت عيسى الذي لا يضاع وقته. كمثلك دُرٌّ لا يضاع. جَرِيُّ اللهِ في حلل الأنبياء". وقال: "قُلْ إني أُمرتُ وأنا أول المؤمنين". وقال: "اصنَعِ الفُلْكَ بأعيننا ووحينا. إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله، يد الله فوق أيديهم". وقال: "وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين".

ومن آلائه أنه لما رأى القسيسين غالين في الفساد، ورأى أنهم علَوا في البلاد، أرسلني عند طوفان فتنهم وتراكُمِ دُجْنهم، وقال: "إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ". فجئتُ من حضرة العزّة وعَتبة الوحدة، عند شيوع الفتن والبدعات، وظهور المفاسد والسيئات، وضعف المؤمنين المسلمين. وقد جرت عادة الله الرحيم، وسُنّة المولى الكريم، أنه يبعث مجدِّدًا على رأس كل مائة، فكيف إذا كان معها طِباقُ ظلمة، وطوفان ضلالة، أليس الله أرحم الراحمين؟ وترون الناس كيف سقطوا في هُوّة النصارى، وكيف تمايلوا عليهم كالسُكارى،

---

* *يبدو أنه سهو لأن هذا الإلهام قد ورد في القسم الأردي من هـــذا الكتـــاب نفـــسه كالآتي: "لا يعلمها". (الناشر)*

وخرجوا من دين الله المتين. أسمعتم مَنْ جاءكم من دوني لإصلاح هذه الآفات، أو تظنّون أنه نَسِيَ هذه الأمة عند تلك الصدمات؟ ما لكم لا تتفكرون، وتنظرون ثم لا تنظرون؟ أو غلبت عليكم هموم أخرى فلا تتوجّهون؟ كلا.. إنّ الله لا يُخلف وعده، ولا يُخزي عبده، فتفكروا إن كنتم متفكّرين.

أيها الكرام.. إن الفتن اشتدّت، والأرض فسدت، والمفاسد كثرت، وعلا في الأرض حزب المتنصّرين. وقيل لهم مرارًا، لا تجعلوا مَيتًا إلهًا غفّارًا، واتّقوا الله مُحاسبًا قهّارًا، فما خافوا الله وأصرّوا على كفرهم متشدّدين. هنالك اقتضتْ أحديّتُه، وقضت غيرته، أن يكسر صليبَهم، ويُبطل أكاذيبهم، ويوهن كيد الخائنين.

فكلّمني وناداني وقال: "إني مرسلك إلى قوم مفسدين، وإني جاعلك للناس إماما، وإني مستخلفك إكراما، كما جرت سُنّتي في الأولين". وخاطبني وقال: "إنك أنت مني المسيح ابن مريم، وأُرسلتَ ليتمّ ما وعَد من قبلُ ربُّك الأكرم، إن وعده كان مفعولا وهو أصدق الصادقين".

وأخبرني أن عيسى نبي الله قد مات، ورفع من هذه الدنيا ولقي الأموات، وما كان من الراجعين، بل قضى الله عليه الموت وأمسكه، ووافاه الأجل وأدركه، فما كان له أن ينـــزل إلا بروزا كالسابقين. وقال سبحانه: "إنك أنت هو في حُلل البروز، وهذا هو الوعد الحق الذي كان كالسر المرموز، فاصدَعْ بما تُؤمَر ولا تخَفْ ألسنةَ الجاهلين، وكذلك جرت سنّة الله في المتقدمين".

فلما أخبرتُ عن هذا قومي، قامت علماؤهم لِلَعْني ولَوْمي، وكفّروني قبل أن يحيطوا قولي، ويَزِنوا حولي، وقالوا دجّال ومن المرتدّين. وسلّطوا عليّ أوقَحَهم وأدَمَّهم، وحرّقوا عليّ أرَمَّهم كالسباع والتنّين. فتَكَأَّدَني شرُّهم وتضورتُ، وغلوا وصبرت، واستباحوا أعراضنا ودماءنا وكانوا فيه من المفرطين. وقال كبيرهم الذي أفتى، وأغوى الناس وأغرى: إن هؤلاء كَفَرة فَجَرة، فلا يسلِّم عليهم أحد، ولا يتبع جنازتهم، ولا يُدفَنوا في مقابر المسلمين.

فلما رأيتهم كالعمين المحجوبين، ورأيت أنهم جاوزا الحد وآذوا الصادقين، ألّفتُ لهم كتبا مفحمة ورسائل نافعة للطالبين. فما كان لهم أن يستفيدوا أو يقبلوها وما كانوا متدبرين. وقاموا للرد فلم يقدروا عليه، وصالوا للإهانة فردَّها الله عليهم، فجلسوا متندمين. وعاندوا كل العناد، وأفسدوا كل الفساد، وحسبوا أنهم من المصلحين. وإن غُلُوَّهم الآن كما كان، وما لهم عندي إلا المداراة والإدراء، والصبر والدعاء، وإنا نصبر إلى أن يحكم الله بيني وبينهم وهو خير الحاكمين. وما كان عندهم عذر إلا قطعتُه، وما شكّ إلا قلعتُه، وما كانت دعوتي إلا بنصوص الآثار وكتاب مبين.

وليسوا سواءً من العلماء والفقراء، فمنهم الذين يخافون حضرة الكبرياء، ولا يَقْفُون ما ليس لهم به علم ويخشون يوم الجزاء، ويفوّضون الأمر إلى الله ذي الجلال والعلاء، ويقولون ما لنا أن نتكلم في هذا وما أوتينا علم عواقب الأشياء، إنا نخاف أن نكون من

الظالمين. أولئك الذين اتقوا ربهم فسيهديهم الله، إنه لا يضيع الخاشعين.

وأما الذين لا يخشون الله ولا يتركون سبل الأهواء، ويُخلِدون إلى خبيثات الدنيا ولا تبالي قلوبهم عالَمَ القدس والبقاء، ولا يرون ما يخرج من أفواههم من كلمات الكبر والخيلاء، ولا يعيشون عيشة الأتقياء، ويجعلون الدنيا أكبر همِّهم، والبخل أعظم مقاصدهم، ويمشون في الأرض مشي المرح والاعتداء، فأولئك الذين نسوا أيام الله ومواعيده ويئسوا من يوم الصادقين، واختاروا سبيل المفسدين. لا يزهَدون في الدنيا ويموتون للفانيات، ولا يتحلّون بحُلِيِّ العفّة والتقاة، وحسنِ الخلق ورزانة الحَصاة، ولا يدخلون الأمور بالقلب المزؤود، ويجترئون على محارم الله والحدود، فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم، وختم على آذانهم، فصاروا من المحرومين. وإذا قيل لهم آمِنوا بما ظهر من وعد الله، قالوا: أين ظهر وعد الله؟ وما نزل ابن مريم وما رأينا أحدًا من النازلين، بل إنا نحن من المنتظرين. وهم يقرأون كتاب الله ثم ينسون ما قرأوا، ولا يتدبرون كَلِمَ الله بل ينبذونها وراء ظهورهم، وما كانوا ممعِنين.

والعجب كل العجب أنهم يقولون إنا آمنّا بآيات الله ثم لا يؤمنون، ويقولون إنا نتبع صحف الله ثم لا يتبعون. ألا يقرأون في الكتاب الأعلى ما قال الله في عيسى إذ قال: ﴿يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ﴾، وقال: ﴿فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي﴾، وما قال: "إني مُحْيِيك". فمِن أين عُلِمَ حياة المسيح بعد موته الصريح؟ يؤمنون بأنه لقي الأموات،

ثم يقولون ما مات. تلك كلمٌ متهافتة متناقضة، لا ينطق بها إلا الذي ضلت حواسّه، وغرَب عقله وقياسه، وترَك طريق المهتدين.

يا أسفا عليهم! إنهم اتفقوا على الضلالة جميعا، وخلّطوا في الكلام تخليطا شنيعا. فكيف نقبل قولهم الذي يخالف القرآن؟ وكيف نسلّم وهمهم الذي لا يشفي الجَنان؟ أنقبل خرافاتهم التي ليست معها حجة قاطعة، ولا دلائل مقنعة واضحة؟ أيصدر مثل ذلك مِن رجل يخاف الرحمن، ويتقي الضلالة والخسران؟ أليس مِن بعد هذه الدنيا يوم الدين؟ وهل ترون يا معشر الأشراف، أن نقبل أمانيهم ونعدل عن خطة الإنصاف، أو نتبع غرورهم وجهلهم وخدعهم بعد ما أرانا الله صراطا مستقيما، ورزقنا نهجا قويما، وعلّمنا سبل العارفين. وكم من أمور أُخفيتْ على الناس حقائقها، وسُترتْ حِكمها ودقائقها، ثم كُشفتْ على رجال آخرين خفاياها، وفهّمهم الله أضلاعها وزواياها. إنه يُظهِر على غيبه من يشاء، ويفتح عين من يشاء ويجعل من يشاء من الغافلين.

أليس الله بقادر على أن يجتبي مثلي بعنايته، ويعطي درايةً من درايته؟ ولله أسرار في أنبائه، وحِكم تحت قضائه، وإن في أقواله حِكم روحانية تضلّ عندها عقول الفلاسفة، ولا يُظهِر على غيبه أحدا إلا الذي طهّره بيد القدرة، أأنتم تحيطون أسراره أو تجادلونه معترضين؟

وكم من الصلحاء رغبوا في أن ينظُروا مَن أنتم تنظُرون، ويجدوا ما أنتم تجدون، فلَمْ يتفقّ، حتى مضوا بسبيلهم وماتوا متأسفين. ثم

جاء الله بكم وأقامكم مقامهم، فأدركتم وقتا ما أدركوه، وآنستم عبدا ما آنسوه. فاشكروا الله الرحمن، الذي من عليكم وأسبغ الإحسان، وخذوا نعم الله ولا تعرضوا عن قبولها، ولا تردّوا نعمة الله بعد نزولها، ولا تكونوا أول المعرضين.

واتقوا يا معشر الكرام سُخْطَ الله العزيز العلام، ولا تعاندوا ولا تستعملوا البُهْتَ وسوءَ التميّز كالعوامّ، وقوموا لله شاهدين. وانظروا.. أيّدكم الله.. نظرا شافيا، وأمعنوا إمعانا كافيا، بالفراسة الإيمانية، والرؤية الروحانية، فإن أولياء الله يُعصَمون من كل زيغ وميل، ولا يشوب مَعينَهم غثاءُ سيل، وتحفظهم عين الله من طُرق الضالين. أترون دليلا، يا معشر الصلحاء، في أيدي الأعداء لنقبَله منهم من غير الإباء، وننقاد لهم فيه كالخدماء التابعين؟ فإنا لا نعاند الحق إذا تجلّى، ولا نردّه من حيث أتى، ونعلم أن الحكمة ضالّة مَن تزكّى، فنأخذها ولا نأبى، ونعوذ بالله أن نكون من الجاهلين.

وقد علمتم يا معشر الأعزة، أن "مالِك" الذي كان أحد من الأئمّة الأجلّة، كان يعتقد بموت عيسى، وكذلك "ابن حزم" المشهود عليه بالعلم والتقوى، وكذلك كثير من الصالحين. فما كنتُ بدعًا في هذا وما كنت من المتفردين. وما جئت في غير وقت، ألا تعرفون وقت المجدِّدين؟ ألا ترون أن السماء للرَجْع تهيّأتْ، والأرض أَجْعَلتْ؟ وكانتا رَتْقًا فالأرض فُتِقتْ، ثم السماء فُتحتْ، والكلمة تمّتْ، فقوموا وانظروا إن كنتم ناظرين. وما كان الله أن يخلف وعده وإنه أصدق الصادقين.

ولله دقائق في أسراره، واستعارات في أخباره، أأنتم تحيطونها أو تنكرون كالمستعجبين؟ وكم من أفعال الله سُترتْ حقائقها، وشُوّه وجهُها وأُخفِيَ حدائقها، ودُقّقت لطائفها ودقائقها، حتى ضلّت عندها عقول العاقلين، وعجز عن إدراكها فكر المتفكرين. وأنتم تعلمون أن شأن أقوال الله ليس متنـــزلاً من شأن أفعال الله، بل هما من منبع واحد، وأحدهما للآخر كشاهد. فتلك من الوصايا النافعة للطالبين، أن ينظروا إلى أفعال الله متأملين، ثم يقيسوا الأقوال على الأفعال متدبرين، فإن إمعان النظر في النظائر من أقوى مجالب العلوم، وأشدّ وطأً للأوهام التي تعصِف كالسموم، فلأجل ذلك رأينا أن نكتب ههنا بعض أفعال الربوبية، الذي تحيرت فيها عقول الفلاسفة، فأضاع أكثرهم الصراط وما كانوا مهتدين.

فمنها ما يوجد تفاوُت المدارج في أفعال الرب الكريم، والمولى الرؤوف الرحيم، لأنه خلق مخلوقه على تفاوُت المراتب، فجعل قوما مورد المراحم، والآخرين محلّ المعاتب، وما جعلهم في شأنهم متحدين. مثلا إنكم ترون امرأة تموت* بعلها ويتركها حاملة ضعيفة، فترى حولها نكبة ومصيبة، لا يُوحِّم أحدٌ وِحامَها، ولا يحصل لها لطرفة عين مَرامُها، ولا تجد طَمْرًا للارتداء، ولا تمرًا للاغتذاء، بل لا يحصل لها جَوْبٌ تستر بها صدرها، فتقصد عاشبةً وتجعَل كمِجْولٍ جُدَرَها، تَكنَبُ يداها من الرحى، والمُخَدَّمة تُجرَح

* سهو، والصحيح: "يموت". (الناشر)

من شوك الفلا، وتعيش كإماء الظالمين. ثم تَخدُجُ وتلِد صبيًّا نَغّاشًا مقصوعًا أعمى ناقصَ الخِلْقة، بعد شدّة المخاض وضِيق النفس والكُربة. فيرى الصبيُّ مِن ساعة تولُّده أنواعَ المحن والصعوبة، لا يحصُل خُرْسةٌ لأُمِّه النُفساء، ليزيد لبنها ويكفي للاغتذاء، فيمصّ ثديها ثم يترك قبل الحَساء. ولما بلَغ أشُدَّه وبلغ الحُلم التامّ وأكمل الأيام، يدخل في الغلمان والخدام، ويستخدمه شَكِسٌ زُعْرُورٌ من اللئام، أو يؤخذ قبل البلوغ ويباع كالأنعام؛ ثم يحمِل متاعب الخدمة مع شوائب الوحدة. وقد يُلجئه صفرُ اليد إلى كافرٍ سَمّاد لطلبِ سَداد، فيأتيه كسَجّاد ولو كان أبا فرعون وشدّاد، فيدخل في خَدَمه كالعبيد من العَوز المُبيد. وربما يسبّه مولاه ويضربه، أو يدير عليه عصاه فيجنُبه، ويؤاخذه على أنه لِمَ غاب لطرفة عين أو فرَّ، وهو إذ ذاك صبيٌّ أبلَهُ لا يعلم الخير ولا الشر، ويقال مثلا: أَخْث في الثفيّة، فإنْ لم يُحْسِن الفعلَ فيلطمون أو يَتَهرَّون على الخطيّة، ولا يرضون بأن يأكل، وأكلُه يُغضِب المحفلَ ولو أكَل أدنى الطعام وطَهْفَلَ، ويفتّشون النَطَفَ، ولا يوجد مَن عطَف. فيلقَى من كل جهةٍ التَرَحَ والبَرَحَ، ولا تلقى* الفَرَحَ، فقد يُضرَب على سَحْقِ الأبازير على المداك، وقد يُلطَم على مكث في الاستاك. يؤتونه ما خلَف من كُدادةِ المطعومات، وبلغ إلى الإيْهات، أو يتركونه جائعا كالصائمين. يشرب من بالوعة يجتنبها الدواب، ويأكل من متأبّسات

* سهو، والصحيح: "يلقى". (الناشر)

يأنَف منها الكلاب، إذا أجدب المُلك فهو أول الأغراض، وإذا نزل وباء فهو مورد الأمراض. وإذا بُدئَ الأطفالُ فهو كعصف مأكول، وإذا أَبْدَؤوا فهو بَقِيَ كمخدول◈، لا يقدر على أكل العَضاض، وإذا جُرِحَ فلا يَظهر أريكةُ الجُرْحِ، ولا يَظهر لحمٌ صحيحٌ بعد القرح. وقد يؤمر لكسح الكناسة، أو لغسل الكاسة، فيُضرَب على خطاء قليل من الخباثة، وقد يُجعَل حَمولةً لأحمالٍ، فلا تبكي عليه عينٌ بدمع همال، بل يحمل مرارا أثقالا فيجري دمه كالحائض، ويُعْدُونه على أرض دمثة كالمُهر تحت الرايض، وقد يُجعَل كالوَجْناء ويُركَب عليه، وقد يَهجُد للخدمة والليلُ يتَصَبْصَبُ أو يجثُم أمام عينيه، وقد يؤمر لِشَقِّ الحطب حتى تَمْجُل يداه، وتتخاذل رجلاه، ثم يؤتى الخبز قَفَارًا فتبكي عيناه. يأكل جبيزا وينفز خفيزا، وقد يُضرَب ضربا شديدا، فلا يَجْنَأُ عليه أحدٌ، بل يَجْفَأُ قدرُ غضبهم فيدوسونه بضَهْد. وهو يشكو كثيرا، فما ينجَع قوله في قلب، بل يُقَدُّ شدقُه دعابةً ويُخسئون ككلب. ويطير نفسُه شعاعًا من كل طبعٍ صُلْبٍ، لا يحبه شقيقٌ ولا الأخيافيّ، ويظنون أنه ثالثة الأثافي. إذا صافى رجلا فما أحبَّ، وإذا زَرَع فما أَحَبَّ، وإن أَحَبَّ فما أَلَبَّ، أو بُرِدَتْ أرضُه أو أَجْبَى زرعَه ثم بالجوع تَبَّ. وإذا تَخَبَّشَ مالاً من الأموال فيهيج عليها زوبعة الزوال، ثم يأخذه نَوْجَةُ الحسرة ووجعُ البال، وإذا شكى فحُماداه أن يُضحَك عليه ويُعزَى إلى الجهل والجاهلين.

◈ *ربما هو سهو، والصحيح: "كمخذول" . (الناشر)*

وأنفَدَ عمرَه عَزَبًا، حتى اشتعل رأسُه شيبًا، وإذا تزوّجَ فزَوَّجَ بجالِعَةٍ مفسدة ناشزة، كريه المنظر مسنون الوجه ونافرة، فينفد عمره في نائبات الدهر وتحت أنياب النكد، وربما يريد أن ينتهر* لقلة ذات اليد، ويرى نفسه في فلاة عوراء، لا شجرة فيها ولا غذاء، وكذلك يعيش أخا غمراتٍ في آلام، ويمرض كل عام، فتارة يَرمَد وتارة يَطْحَل أو يؤخذ في زكام، وقد يعروه مرضٌ فيمتدّ مَداه، حتى تعرقه مُداه، وبالآخر يُنــزَع عنه ثوب المَحْيا، ويُسلَّم إلى أبي يحيى.

فالآن فكِّرْ ثم فكِّرْ، ثم تذكَّرْ سنن الله في العالمين. أليست في أفعال الله معضلاتٌ لا تُدرَى، وأسرار لا تحصى؟ فقسْ أيها المسكين أقوالَ الله على أفعاله، ولا تعجب لمعضلات أنباء الله وعُضاله، ولا تعجَلْ في أمر مجدّدٍ وصدق مقاله، ولا تقُلْ إني ما رأيتُ علامات أُخبرتُ عنها، وما شهدتُ أماراتٍ بلغني أنباؤها، فإن الله قد أتمّ كلماته كلها، وأظهر علاماته جميعها، ولكن عُمِّيتْ عليك حقيقةُ أقوال الله، كما عُمِّيتْ عليك حقيقة أفعال الله. وكم من أنباء تُكسَى وجودها بالاستعارات ولطائف الإيماء، وتُنكَّرُ أشخاصها عند إتمام الوعد والإيفاء، ويُدقَّقُ معانيها من حضرة الكبرياء، بما يراد أنواع الابتلاء. ألا ترى إلى رؤيا الناس، كيف تتراءى في أنواع اللباس، وكيف يخفى مفهومها فلا يتجلى حقيقتها إلا على

* سهو، والصحيح: "ينتحر" كما تدل عليه الترجمة الفارسية. (الناشر)

الأكياس، الذين يعلَّمون العلم من ربهم ولا ينطقون بالقياس، فأين تذهب من سنن رب العالمين؟

وإذا قيل لك في الرؤيا إن ابنك الميّت سيعود ويرجع إليك، فلا تحملُها قطّ على الحقيقة أنت ومن لديك، ولا تمدّ إلى قبره عينيك، ولا تحفرُ لَحْدَه طمعًا في حياته، ولا تجادل الناس في رجوعه بعد مماته، بل تؤوِّل الرؤيا وتقُول: إن ابنا مثله يولد لي فكأنه هو يَؤُول. فأَنَّى تقلّبُ في أمر عيسى، تلك إذا قسمة ضيزى، وكلٌّ من الله الأعلى، فلا تعجَلْ كالذين هلكوا من قبلك وضلوا وأضلوا كمثلك.

وقد علمتَ أن القوم جهدوا جهدهم ليضيعوا أمري ويفرّقوا تفريقا، فلو كان من عند غير الله لمزقّوه تمزيقا، وليجعلونا* كالمعدومين الفانين. إنهم مكروا كل مكر، وهيّجوا عشائر، وتربّصوا علينا الدوائر، فديْسُوا تحت دوائر السوء مخذولين، وأعظم الله شأننا، وأعلى برهاننا، وسوّد وجوه الحاسدين. وقال فرعونُهم: ذَرُوني أقتُلْ موسى، إني أنا الذي رفَعه، وإني أنا الذي سيحُطّه، ويلقيه في جُبِّ المُهانين. وقال ربي: "إني مُهينٌ مَن أراد إهانتَك، ومُعينٌ مَن أراد إعانتك"، فأذاقه ربي طَعْمَ نَخْوته الكبرى، وجعَل مكانته هي السفلى، إن الله لا يحبّ المستكبرين.

وترى الناس كيف يرِدون إلينا، وكيف يمنّ ربُّنا علينا، وكيف يأتي الله أرضَه ينقُصها من أطرافها، وكيف يأتينا خيار الناس من

* *يبدو أنه سهو، والصحيح: "ولَجَعَلونا" . (الناشر)*

أقطارها وأكنافها، ذلك من فضل الله ليُري الناس أن أعداءنا كانوا كاذبين. إنه يُعزّ من يشاء، ويرفع من يشاء، لا رادَّ لفضله، ألا إن الحق علا، وتَعْسًا للقوم الكائدين المزاحمين.

وانظُرْ إلى آثار سنن الله في أفعاله، أتفهَمُ معضلاتها أو تحيط حِكَمَ كماله؟ فما لك لا تهتدي من طَرْزِ أفعاله إلى طرز أقواله، وتختار سبل الغاوين؟ أما ترى أن عبدًا قد يُبتلى بالنائبات، ولا يُدرى من ظاهرِ سَمْته أنه من الفاسقين والفاسقات، فالآفات تنـــزل عليه كالعوائر، أو كالسهم العائر، ويتيهُ كالمستهام الحائر، وكان في وقت يملك المال النفيسَ، والآن يُعَدُّ من عُصبة مَفاليسَ، حتى يبدو باديَ اللُّبانة، باليَ الكسوة، وكان يقول: أنا أكثر مالا وولدا، وأُعطيتُ التنعم والمَلَدَ، وكان يقول: إني من الصالحين، وجحيشٌ وشَيحانُ وفاتكٌ وأمين، وكان يدّعي أن له دخل عظيم في الحديث والقرآن، وأنه جمع في نفسه أنواع العرفان، فأتى أمرُ الله وقضاؤه، ونزل عليه بلاؤه، فذهب بسمعه وأبصاره، وختم على قلبه وجعله أوّل الجاهلين. فاشتهر بحمقٍ فاضح، وجهل واضح، وأُخرِجَ من الجنة التي كان فيها كالمكرمين. فصارت له السفاهة والذلة، والجهل والنكبة، كالمواريث المعيَّنة والحصص المفروضة المسلَّمة، وسقَط من سماء العروج كالملعونين. ويعلم الناس أن مصيبته جلّتْ، ونوائبه عظمتْ، ثم يمرّون به مستهزئين. وهو يُدبِر فلا يقدر على أن يفرّ من قدر الله ذي الجلال، ولو فرّ على لاحقة الآطال، وربما يتبصر كالجَذع ويُقدم كالقارح، فيجيء قدرُ الله ويطرحه كالصبي في البارح، فيرتعد كلَّ

وقت كاليَراع، ويتحرك كاللُعاع، ويفكّر أزيدَ من القدر اللازم، ثم لا ينجو من الهم الهاذم، ويبقى كالخائبين. ثم يبدو له أن يقطع المسافة النائية ليعالج الآلام القضائية ويكون من الفائزين؛ فيقال مثلا إن أمير "كابلَ"، يربي العلماء ويشابه الوابلَ، فيفرح فرحا شديدا كالسكران، ويقصد "كابل" مع بعض الإخوان، ليوطنوه أمنعَ جناب، ويُمطَروا دراهم كسحاب، وهو يجعل ابنه الذي هو سرُّه رفيقَ عَتاده، خوفا من ارتداده، و لم تزَلْ تعاني عينُه السُّرَى، وتُعاصي الكَرَى، فيصِل "كابل" بشقّ النفس وجهدِ المُهْجة، بعد مكابدة أنواع الصعوبة، ويلقى بعضَ العَمَلة، ويصافي بالنفاق والمداهنة، ويخفي مذهبه خوفًا من الحرمان، أو الهوان من أيدي "عبد الرحمن". وكذلك تُسوِّل له النفس مِن عُسْر المعيشة، فيسجُد تواضعًا لكل ذوي الثروة، ويخرّ أمام أركان الحكومة، وحينئذ يصدُق فيه ما قيل في أهل التزوير: **"بِئْسَ الفقير على باب الأمير"**.

فالحاصل أنه يصدَع عَمَلةَ الأمير بالمحبة، ويتبخبخ بالصُّحبة، ويُوجي أقدامُه إلى قصر الأمير غربةً، فلا يقول له أحد اركَبْ مطيّة، أو تسلَّمْ عطيّة، ويسأل إلحافا كالشحّاذين. وينكِّر شخصَه ويلفِّع وجهه، لئلا يؤخذ كالمجرمين. ويكون لهم أطوعَ مِن حذائهم، وأفنى فيهم من غذائهم، ويسلّم عليهم تحية الخادمين. ثم يقودونه إلى حضرة الأمير، ويذهبون به كالأسير، فيخرّ أمامه كالساجدين، ويثني عليه قائلا: يا أيها الأمير الأكرم، والسلطان الأعظم، مسّني وأهلي

ضرٌّ، وبعمرك إن عيشي مرٌّ، وجئتك من ديار بعيدة، بمصائب شديدة، فتصدَّقْ عليّ إن الله يجزي المتصدقين.

ويخاطبه الأمير بلسانٍ ذَلِقٍ، ولا يُريه رائحة من مَلَقٍ، ويقول اجلِسْ ويتكلم به غضبانٍ، فيظنّ المسكين أن أجله قد حان، فهناك لا يبقى إيمانه بالألطاف الرحمانية، ويكاد يخرج بوله من الهيبة السلطانية، وكذلك يخزي الله عَبَدةَ المخلوقين. ثم يخرج من بيت الأمير، ويستيقن الأمير أنه أحد من أهل التزوير، فلا يُؤوَى إليه كرجال متقين. وأما ذلك المغرور الجهول، والسفيه المخذول، فيظن أن العطايا العظام ستسلَّم إليه، ويكرمه الأمير ويكون له مكانة لديه، أو يدخل في المقربين.

فبينما هو في نسج هذه التخيلات، وتغيير اللباس كالصائد والصائدات، يطّلع بعض المتوسمين على شِقاقه، ويُخبَرون عن فطرته وطريق نفاقه، فيفاجئه داءُ الإشفاق، ولا يسري الوسن إلى الآماق، ويظن أنه من المقتولين. ويُوجِس في نفسه خِيفةً على خيفة، بما يرى رعب الأمير وطريق عقوبة، فتكاد تزهق نفسه ويسقط كجيفة، أو يغمى عليه كالمفسدين الخائفين. فيفر ويرتحل بالمُدلِجين المُجدّين، ويحسب حياته صِلةً من أمير المسلمين. أو يعطى له قليل إنعامه، فلا يقِلُّ به شيء من إصرامه، ولا تفيده سجدتُه ولا جهدُ اصلخمامه، بل يعرف أنه ليس أهل إكرامه، فلا يظلمه الأمير النحرير، بل هو يظلم نفسه فلا ينفعه البحر ولا الغدير، فيقصد داره مخذولا وملوما، ومريضا محموما، ويُظهِر أنه رجع فائزا مقبولا، مع أنه رُدَّ في الحافرة،

ورجع بالكَرّة الخاسرة، ولكن يستر أمره خوفا من اللاعنين، وكذلك ينفد عمره كالمصابين.

ثم يرجع من تلك البلدان، ويصبر مليًّا من الزمان، وبعد برهة يقصد أناسا آخرين، فلا يرى وجهَ خير من جناب، ويتردد من باب إلى باب، ويخسأ ككلاب، وتترامى به مرامي الإفلاس، إلى فلوات الهوان والانتكاس، ويُجلَى من أرض إلى أرضٍ، ويكابد محن السفر لعَرَضٍ، حتى يصير ابنَ كلِّ تربة، وأخا كلِّ غربة، يقطع كل واد، ويشهد كل ناد، ثم يرجع بجَرْدٍ ووجهٍ كرماد، ومرضٍ جلادٍ كالخائبين. لا يرى يوما مُسلِيًا عن الأشجان، ولا قوما مواسين كالأعوان، ولا يأتيه الحِمام، لينقطع الآلام، فيلعَن بَختَه كالملعونين، وكذلك يعيش بشِنْشِنة الشحّاذين والسائلين إلحافا والمعترّين. يأكله الإفلاس، ويدوسه الانتكاس، حتى يذهب عقله ويختلّ الحواسّ، ويريد أن ينبُط فيغيض، ويسعى أن يصعد فيتصدى له الحضيض، ولا يزال يسمع لعن القوم، ويوخزونه بأسنّة اللوم، وربما يضربونه على هفوته، مغاضبين على ما يخرج من فوهته، ويُضبّون عليه بأدنى العثار، وكادوا أن يقتلوه بالسيف البتّار، ولا يعُدُّون عن اللَذْع والقَذَع، ولا يذيقونه رائحة كرم الطبع، بل ربما يضربونه بالنعال، أو العصي والحبال، حتى يجد ما يجد الحائر الوحيد، ويرى كل ما كان عنه يحيد، ويقول يا ليتني مت قبل هذا وما مسّني الخزي المبيد. فيضطر إلى أن يختار البَين المطوِّح، والسير المبرِّح كالمصابين. فيمشي راجلاً، ويركض عاجلاً، يغتمد اللَيلَ، ويلِج السَيل، وربما يتراءى له

شَبَحُ مرادٍ، أو يدعوه أحد بإظهار وداد، فيفرح ويُعدي إليه نِضْوَ عَتادٍ، بِنآدٍ واستيساد، ويُنضِي عِرْباضَه بوَقْدٍ* وذَميلٍ، وإجازةِ مِيلٍ بعد ميلٍ، فبالآخر يلقى الخسران والحرمان، ويظهر أن الداعي قد مان، ويتحقق أن سفره ابتلاء ومحل الاستهزاء، والأمل باطل وخيال كتخيلاتِ "نزول الماء"، والمآلُ خسران مع شماتة الأعداء. وبالآخر تُشيّبه النوائب، ويحضُره الأجل الغائب، فيموت وهو هِمٌّ، وعليه هدمٌ، فلا يبكي باكٍ عند رفع جنازته، ولا تذرف عين على فُرقته، ويرتدّ أبناؤه بعد موته من الدين، ويتنصّرون ويلحقون بالشياطين. ويملك شركاؤه داره الخربة، ولا يُهْدُون إليه إلا اللعنة، فيُقطَع اسمه من الدنيا، ويكون مآل أمره خسران الدنيا والدين، وسواد الوجه في الدارين، والبعد من رب العالمين.

ورجل آخر وُلد في بيت الشرف والكمال، والعزة والإقبال، ما مسّ أبويه الإفلاسُ، وما علِم ما البأس وخرَّجه الأكياسُ، ويهتزّ الخدام عند حركة شفتَيه، ويثبُون لتحصُّل ما أحبَّ لدَيه، وترى جَفْرَه مُنبطا، وقَفْرَه مُعْشَوشِبًا، ومِن كل فعلٍ يُترَع كِيْسُه، وتميسُ خَنْدَلِيسُه، ويعيش حميدا ويحسبه الناس سعيدا ومن الصالحين.

بل ربما تجد رجلا فاسقا قويمَ الشاط جمومَ النشاط، يميس في حلل المِراح، ولا يخطئ سهمه من غرض الأفراح. يُسفَّد له كل لحمٍ غريضٍ على السَّفود، ويُشوَى له الفراريج مع الرغيف المثرود، وهو

* سهو، والصحيح: "بوَخْدٍ". (الناشر)

يأبز كأُبوزِ الظباء، وقد يجد كنْزا في الجَهْراء، ويصيد أناسًا كالدواب بإراءة ملامح السراب، ومع ذلك لا يرى البأساء والحُوبة، ولا يكابد الصعوبة، ويعطَى حظا كثيرا من رؤية غِيدٍ، وسماعِ أغاريد، وأموال وبنين، وأملاك وأرضين، وغلمان وخادمين. مع أنه يسارع في السيئات، ولا يتوب من الممنوعات، ولا يأخذ في كُسْعِ الهنات بالحسنات، وتَلافِي الهفوات قبل الوفاة، بل يجترئ على المنهيّات، ويجاوز حدود الله كالغالين. ولا يتقي بل يتبرأ من ملاقاة التُقاة، ولقاء الثِقات، ومداناة أهل الديانات، بل يرغب في مُقاناة القَينات، ومعاناة الفاسقات، ولا يسمع نصح الأجانب ولا الأقارب، بل يأبِر الناصحين كالعقارب، ولا يلتفت إلى وصايا الحيّ، بل يصول عليهم كالحَيّ*، ولا يَفيء مَنْشَرُه إلى الطيِّ، بل يزيد كل يوم في إثم مبين.

---

*حاشية: قال بعض البراهمة إن التفاوت من أعمال النشأة السابقة. واعلم أنهم قوم يعتقدون بالتناسخ نظرًا على تفاوت مراتب المخلوقات، ويقولون إن أنواع الحيوانات قد حدَثتْ من أنواع الحسنات والسيئات، وأصرّوا على هذا وجاءوه مُوعِبين. وأنت تعلم أنّ هذه الأوهام ما ظهرت من منبعٍ بصيرة، ولا من لُجّة معرفة صحيحة، وما قامت عليها حجة من حجج قاطعة، بل تشبّثوا بها عند عَمَه وحيرة، وعدمِ الوصول إلى حقيقة أصلية، ولغوبِ الفكر وقلّة دراية، وما استطاعوا أن يُقيموا دليلاً عليها، بل أنت ستعلم أن الدلائل قامت على ما خالفها كما لا يخفى على المستبصرين. وكان عليهم أن يُثبتوا أن الروح الذي انتقل من الدنيا باليقين رجع إليها ثانيا، ورآه حزبٌ من الشاهدين، فما أتوا بالشهداء كالصادقين.

وكفاك من وجوه بطلان هذه العقيدة الفاسدة، أنها يخالف❶ نظام الرحمانية الإلهية، ويجعل❷ اللهَ الكامل القادر الخالق كالضعفاء المعطَّلين. وأنت تعلم أنه خلق كثيرا من الآلاء والنعماء للإنسان، وما كان وجودُ الإنسان ولا وجودُ أعماله في تلك الأوان، كما أنه خلق الأرض والسماء، والشمس والقمر وكل ما شاء، في الأفلاك والأرضين،

لينتفع بها الناس بإذن رب العالمين. ولا شك أن وجود الإنسان ووجود أعماله بعد وجود هذه المخلوقات، كما ترى أن وجودنا مسبوقة لوجود الأرض والسماوات والعناصر التي عليها مدار الحياة، والإنكار جهل وسفاهة، ومن قبيل المكابرات، فالرحيم الذي خلق لنا قبل وجودنا كثيرا من النعماء، كيف يُظَنّ أنه بدّل قانونه بعد تلك الآلاء، وفوّضنا إلى أعمالنا كبخيل وضنين؟

ثم الذين انغمسوا في هذه التوهّمات، وظنوا أن هذا العالم يدور على محْوَر التناسخات. يقولون إنه ليس أحدٌ خالقَ أصلِ المخلوقات، بل كل روح قديم وواجب كمثل الله وكذلك أجزاء المركبات، وهذا هو الأمر الذي لزمهم من إنكار صانع المصنوعات. فإنهم لما أنكروا بوجود البارئ الصَنّاع، اضطرّوا إلى أن يُقرّوا بقدم الأشياء، فجعلوا كل شيء واجب الوجود، مضطرين. وظنوا أن صانع العالم أحدٌ منهم في الوجوب والقدم كالمتشاركين. فهذا دليل آخر على إبطال أوهامهم، وردِّ كلامهم عند المحققين. فإن الله الذي هو قيّوم الأشياء، وبه بقاء الأرض والسماء، كيف يمكن أن يكون أحدٌ من الموجودات، ويساويهم في الوجوب وقدم الذات؟ ولو كان البارئ أحدًا منهم وعلى درجة المساواة، فكيف تكون ربوبيته محيطةً على الأرواح وأجساد الكائنات؟ بل هو إذ ذاك يكون كالإخوان للآخرين، لا مبدأ الفيض ورب العالمين. وشتّان بين هذه الحالات وبين قيّومِ السماواتِ والأرضين. ثم حينئذ لا تبقى دلالةُ شيء على وجوده، وكيف الدلالة إذ لم يخلق شيئًا بل تباعد عن حدوده؟ ولا يفتي القلب السليم، والعقل القويم، أن يبقى وجود البارئ بغير دليل وبرهان مبين.

ثم لَمَّا سلّموا أنّ أنواع المخلوقات نتيجة ضرورية لأنواع الحسنات والسيّئات، لزمهم أن يُقرّوا بأن أقسام الحيوانات لا يُجاوز أقسامَ الحسنة والسيئة، وهذا باطل بالبداهة والمشاهدة الحسّيّة. فلا شك أن هذه الأوهام قد نُحتت من تلفيقات إنسانية، وتجويزات اضطرارية، فإنهم إذ لم يهتدوا إلى الحق، ألقوا الآراءَ رجمًا بالغيب كالعامهين، وما كانوا مهتدين.*

ثم من المعلوم أن الأمر لو كان كذلك من رب الكائنات، لوجب أن يكون قلّة الناس وكثرتهم تابعا لتغيُّر عدد الحيوانات، وهذا باطل بالبداهة، وكذب بَحْتٌ عند نظر التجربة، لأنّا نشاهد غير مرة في أيام البسْرات، كثيرا من الأَذبّة والحشرات، والهوامّ والديدان والضفادع وأنواع الحيوانات، ونعلم أنها أضعاف مضاعفة من عدد نوع الإنسان، بل لا يوجد الناس عُشْرَ عَشيرها عند الحسبان. فلو كانت هذه الحيوانات أرواح الآدميين، فلزم أن لا يبقى في الخريف نفس واحدة منهم في الأرضين، ولكنا لا

نرى هناك نقصانًا في عدد نوع الإنسان، مع كثرة تكوُّن حشرات الأرض والديدان، بل نراهم كل يوم متزايدين.

وأمّا قولهم أنها أرواح تتنـــزل من معمورة السماوات، فهذه تكلفات واهية ومن قبيل الخرافات، نُحتتْ عند فقدان الدلائل وورود الاعتراضات، وما أرى دلائل أقيمتْ على تلك الخيالات، بل هي كلمات غير معقولة تخرج من أفواههم من غير الإثبات، كمثل غريق يتشبّث بالحشائش خوفا من الممات. ولو كان في السماوات ونجومها وشموسها وأقمارها أناس ساكنين مطمئنين، لكان معهم كثير من الحيوانات والحشرات التي انتقلت أرواحها من أجساد الآدميين،

ولكان ذلك النظام أكملَ وأتمَّ كنظام الأرضين، غيرَ محتاج إلى معمورة الآخرين. فبأي ضرورة تلجأ الأرواح حينئذ إلى النـــزول؟ وكيف يستقيم هذا التأويل عند العقول؟ أليس في حُماة هذه العقيدة رجل من المستبصرين؟

ثم لَمَّا جرت العادة أن كل حشرة تتكون في تلك الأيام، وكذلك وقعت في قانون الله صورة النظام، ولا تبلغ إلى هذه الكثرة في غير تلك الأيام المعدودة، فلو كان سبب هذا انتقال أرواح الناس إلى الحشرات في أيام البُسْرات، لكان هذا الأمر من معضلات غير منحلّة عند التحقيقات، بل من أمور بديهي[3] البطلان والمحالات، ومورد كثيرٍ من الاعتراضات، عند كل ذي رأي متين. أتظن أن بني آدم يُذنبون في تلك الأيام أكثر من أيام أخرى، فيموتون وينقلبون إلى الحشرات جزاءً من ربهم الأعلى؟ فانظر.. أهذا أمر يقبله قلبك بالثلج التام، أو يشهد عليه قانون الله وصورة النظام؟

ثم إنّا نشاهد أن كثيرًا من الحشرات والديدان الصغار، تخرج من أقصى طبقات الأرض عند حفر الآبار، بل توجد في مياهها ديدان دقيقة كالصئبان، لا يخفى عند الامتحان، أو تتراءى بآلات تحديد البصر باليقين. فالآن ما رأيك؟ أَتزعم أن الأرواح تنـــزلت أولاً على سطح الأَرض مَن العلى، ثم خُسفت وبلغت إلى منتهى طبقات الثرى؟ فاتق الله يا مسكين.

وإن قلتَ: فما بال الناقصين الذين ماتوا على حالة النقصان، وانتقلوا من هذه الدنيا مع أثقال العصيان، فإنهم ما يُرَدّون إلى الدنيا ليتداركوا ما فات، فكيف يُكمَّلون ويجدون النجاة، أو يدخلون في الجنّة غير مكمّلين، أو يُترَكون إلى الأبد معذَّبين؟ فاسمع.. إننا نعتقد بأن جهنم مُكمِّلةٌ للناقصين، ومنبِّهةٌ للغافلين، وموقظة للنائمين. وسمّاها الله أُمَّ الداخلين، بما تربُّهم كالأمّهات للبنين. ونعتقد أن كل بصرٍ يكون يومئذ حديدا بعد برهة من الزمان، ويكون كلُّ شقي سعيدًا بعد حقب منَ الدوران، ولا يلبثون إلا

أحقابًا في النيران، إلا ما شاء الله من طول الزمان، فإنّا ما أُعطينا علم تحديده بتصريح البيان، فهو زمان أبدي نسبةً إلى ضعف الإنسان، ومحدود نظرًا على منن المنّان، ولا يُترَكون كالأعمى إلى الأبد على وجه الحقيقة، ويكون مآل أمرهم رحْمَ الله والرشد ومعرفة الحضرة الأحدية، بعد ما كانوا قومًا عمين. ونعتقد أن خلود العذاب ليس كخلود ذات الله رب الأرباب، بل لكل عذاب انتهاءٌ، وبعد كلّ لعنٍ رُحْمٌ وإيواء، وإن الله أرحم الراحمين. ومع ذلك ليسوا سواء في مدارج النجاة، بل الله فضّل بعضهم على بعض في الدرجات والمثوبات، وما يرد على فعله شيء من الإيرادات، إنه مالك الملك فأعطى بعض عباده أعلى المراتب في الكمالات، وبعضهم دون ذلك من التفضلات، ليُثبت أنه هو المالك يفعل ما يشاء، ليس فيه إتلافُ حق من حقوق المخلوقين. ولما كان وجود الله تعالى علّةً لكل علّة، ومبدءًا لكل سكون وحركة، وهو قائم على كل نفس، فليس من الصواب أن يُعزَى إخلاد العذاب إلى هذا الجناب، وما كان العبد مُختارًا من جميع الجهات، بل كان تحت قضاء الله خالق المخلوقات وقيّوم الكائنات، وكان كل قوته مفطورةً من يده ومن إرادته، فله دخلٌ عظيم في شقاوته وسعادته. فكيف يترك عبدًا ضعيفًا في عذاب الخلود، مع أنه يعلم أنه خالقُ الشقي والمسعود، والعبدُ يفعل أفعالا ولكنه أوّلُ الفاعلين، وكل عبد صُنْعُ يده وهو صانع العالمين. وإنه رحيم وجواد وكريم، سبقت رحمتُه غضبَه، ورفقُه شَصْبَه، ولا يُساويه أحدٌ من الراحمين. فلا يُفني كل الإفناء، ويرحم في آخر الأمر وانتهاء البلاء، ولا يدوس كل الدوس بالإيذاء كالمتشددين، بل يبسط في آخر الأيام يده رأفةً ويأخذ حُزْمةً من الناريّين. فانظر إلى يد الله وحزمته، هل تغادر أحدًا من المعذّبين؟ وكذلك أشار في أهل النار وقال قولا كريما، فيه إطماع عظيم ونسيم الإبشار، فقال: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ إِلا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ (هود:١٠٨)، فانظر إلى استثنائه ببصر حديد ونظر رشيد، ولا تظن ظن السوء كاليائسين.

والعجب كل العجب من إله النصارى، أنه بزعمهم صلَب ابنه وأضاع وحيده كالمجنون الغضبان، وما سلك في المجازاة طريق العدل والرفق والإحسان، بل خوّف من العذاب الأبدي الذي لا ينقطع في حين من الأحيان. فأين الرحم في مثل هذا القهّار، الذي فوّض الابن المحبوب إلى الكفّار؟ وما خفّف عذابه كالرحماء الأخيار، بل ألقى عباده في جهنم لأبد الآبدين. زاد العذاب زيادة فاحشة مكروهة، ثم ادّعى أنه قتل ابنه لينجّي المذنبين رحمة، فما هذا إلا طريق الظالمين المزوّرين.

ثم نرجع ونقول إن البراهمة قد تركوا سبل الهدى، فلا تتبع خرافات قوم نَوكَى، واسأل الله أن يهديك إلى صراط الراشدين. ألا ترى أنهم جمعوا تناقضاتٍ في خيالاتهم، وأضحكوا الناس بخزعبيلاتهم، وجاءوا بإفكٍ مبين؟ قد لزمهم من جهة عقيدتهم أن يَدْعوا ربهم بالتضرعات، ليفني كلَّ حيوان منٍ دون رجال يوجد تحت السماوات، من بقرٍ وجاموسٍ وماعزٍ وغيرها من الحيوانات، وكلّ امرأة زوجًا كانت لهم أو من الأمهات والبنات والأخوات، ليستخلص أرواح آبائهم من تناسُخ ومن عذاب مهين[٥].

بل كان هذا الدعاء أهم مقاصدهم وأعظم مآربهم إن كانوا راسخين على عقيدتهم ومستيقنين. ولكنهم يَدْعون خلاف ذلك، وقد حثّهم "ويدهم" على أن يدعوا ربهم يعطهم كثير[٤] من البقر والفرس ويجعلهم من المواشي متموّلين.

و"الويد" مملوٌّ من مثل هذه الأدعية، كما لا يخفى على الذين قرأوا "الركويد" بالبصيرة، وسمعوه من البراهمة متأملين. فلو كان "الويد" من عند الله، لما وُجدَ فيه دعاء لا يتأتّى إلا بفسق الفاسقين. وترى الهنود كيف يودّون أن يكون لهم أقاطيعَ من البقر والجواميس ويصرفون هممهم إلى هذا الأمر مدبرين، فكأنهم يحبون أن تبقى الفاحشة إلى أبد الآبدين، بل يحب ويدهم أن لا يقطع أبدًا سلسلة ذنب المذنبين.

وأمّا القول الأحسن الأقوم في هذا الباب، والحق القائم على أعمدة الصواب، فهو الذي بيّنه الله في الكتاب لقوم طالبين. وهو أن هذا العالم لا يدوم إلى أبد الآبدين، بل له انقطاع وانتهاء، وبعده عالم آخر يقال له يوم الدين. ولا يُلقّى نعماءه إلا الذي اختار الشدائد على النعماء، وآثر الآلام على الآلاء، وصبر على أنواع البأساء، لرضاء رب العالمين. فالذين وصلوا هذه السعادة، وبلغوا الشرف والسيادة، فهم قومان عند الرب المنّان. منهم قوم يجاهدون في الله بأموالهم وأنفسهم، ويؤتون في سبيل الله كلَّ أَحَبِّهم وأنفَسِهم، ويشرون نفوسهم ابتغاء مرضاة الله، ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة، ويبيتون لربهم سجّدًا وقيامًا وباكين. ولا يُفرّطون في حظ أنفسهم، بل ينفقون أموالهم في مراضي الله، ويعيشون كالفقراء والمساكين. وقوم آخرون يتولّى الله أمر نجاتهم، ويفعل بهم أمورًا ما كان لهم أن يفعلوها لنجاة أنفسهم، فيصبّ عليهم مصائب وشدائد وأنواع النائبات، ويبتليهم بنقص من الأموال والأنفس والثمرات، ثم يرحمهم بذلك، وينـــزل عليهم صلواته وأنواع البركات، كما ينـــزل على أهل الباقيات الصالحات، ويلحقهم بقوم محبوبين. وتُحسَب تلك الآفاتُ عبادةً منهم، ومجاهدةً من عند أنفسهم بما صبروا عليها مستقيمين. فيبلّغهم الله مقاماتٍ بلغها قوم

ويركَب كلَّ فرسٍ أَوْظفة القوائمِ هيكلٍ، ويسبِق كلَّ ألدَّ ذي حَنَق ويشابه العَنْدَل، ويُنفد أيام العمر كخليع الرَسَن مديد الوَسَن، يباعد دارَه عن دار أهل الصلاح، ويثافن بأهل الفسق والطلاح، لا يحلّ مسجدا بل يطلب عَسْجَدا، ويميل إلى ناجُودٍ وباطئة، مملوّةٍ من صهباء محمرّة، في حَلَقة ملتحمة، ونظّارة مزدحمة. يتخذ دنياه صنمًا ففيه يرغب، وبها يكلَف وعليها يكلَب، وفيها يتنافس في كل حين، ولا يتزود من العقبى والدين. يذهب عمره في اكتناز الذهب، وتطلّعَ

---

زاهدون صالحون وحزب عابدون مرتاضون، ويرضى عنهم كما رضي عن قوم يعبدونه ويؤثرونه ويجعلهم فائزين.

ويختار لكل ما صلح لنفسه، وهو يعلم مصالح المخلوقين. فما بقي محل اعتراض في هذا المقام، فإنهم وجدوا جزاءهم على الآلام، وأصابهم حظ كثير وأُعطوا نعمًا غير محدودة من الفضل التام، ودخلوا في مقعد صدق كالأبرار الكرام، ووصلوا اللذّات الأبدية فرحين. وورثوا جنة لا تنقطع نعماؤها ولا تنفد آلاؤها، ووجدوا نعماء أبدية بنصب أيامٍ قلائل، ودخلوا فردوس ربهم خالدين. وما هذه الدنيا إلا طرفة عين تنقضي مرارتها وحلاوتها، وتنعدم نضارتها وطراوتها، ولا تبقى لذتها ولا عقوبتها، فلا تتمايلُ عليها أعين العارفين. **هذا مما ألهمني ربي فخُذْها وكُنْ من الشاكرين**. منه.

==========

❶ *سهو، والصحيح "تخالف". (الناشر)*

❷ *سهو، والصحيح "وتجعل". (الناشر)*

✱نوت: أعجبَني عقلُ البراهمة، أنهم جمعوا التناقض في العقيدة، يعتقدون بوجوب العذاب على سيئات سابق الزمان، ثم يَدْعون ربهم لكشف العذاب عنهم عند المكاره والأمراض والخسران، بل بعضَهم يَدْعون بالإصرار، ويجلسون في موقد النار، بكدٍّ وتعبٍ، في هواجرَ ذاتِ لهبٍ، ولا يفكّرون في هذا التناقض كالعاقلين.

❸ *سهو والصحيح: "بديهية". (الناشر)*

⊙ نوت: إن كان التناسخ هو الحق فيجب أن يجتنب التزويج كلُّ مَن تمسك بهذه الاعتقادات، لعل النساء المنكوحات كن بناتهم أو أخواتهم أو أمهاتهم أو أمهات الأمهات. منه

❹ *سهو والصحيح: "كثيرا". (الناشر)*

الشحُّ على قلبه كذات اللهب، ومِن كلِّ طرف يعطِف عليه القلوبُ، ويُسنَّى له المطلوب، ولا تعطَّلُ قدوره ولا جعالُها، ولا ينصاع أيامه ولا إقبالها، ويُذَبُّ جُحالُه، ويبارَك له زُلاله، لا يرى يوم الحرمان في النعماء، ولا ينحو بَخْتُه نحو الانكفاء، مع أنه ينفد عمره في الفحشاء. لا تسقط عليه صاعقة، ولا تلدَغه حيّةٌ، ولا يمحى اسمه من الأرضين، بل يكثر أولاده، ويجمع حوله أحفاده. يملك الصدرَ في كل ناد محشود، ومحفل مشهود، ويُحسَب مِن بدور المحافل، ورؤوس الأسافل، ويقوم خَدَمُه عند رأسه، حتى يهبّ من نعاسه، ويأكل ويشرب حتى يكون بطنه كالقبّة، ويشرب الحَلَبَ مِلْءَ العُلْبة، ولا يأخذه توخُّمٌ ولا يكون من المبطونين. يركب على كل مطيّةٍ وَطِيّةٍ، ويكون له تنعُّمه كعطيّة، ويشغَفه الأملاك والغلمان، ولا يدري ما الإيمان. لا يغادر صغيرة ولا كبيرة، ولا يُثنى عليه خُلقا وسيرة، ومع ذلك يكون مرجَعَ الخواصّ والعوامّ، ويصافونه بالحبّ التامّ، حتى يكون قبره بعد موته معتمَرَ الزائرين، وتتعهدها صباحَ ومساءَ زُمَرُ المعتقدين.

وما قام دليل على كَوْرِ هذا الإنسان، وحَوْرِ الرجال الذين سمعتَ ذكرهم في سابق البيان، ولا يُدرَى كيف وقع قوم في يد النخّاسين، وآخرين دخلوا في المنعَمين.

فهذه أسرار لا تبلغ الأنظار منتهاها، ولا تدري الأفكار مغناها، فإذا وجدتَ هذه المعضلات في أفعال الله فكيف لا يوجد مثلها في أقوال الله؟ ما لك لا تقيس أقوال الحكيم على أفعال الحكيم؟ مع

أنهما كالمرايا المتقابلة، وكالتوأَمَين في المشاكلة، فلا بدّ فيهما من وجود المناسبة، وتحقُّق المشابهة. فلا تجاوِزِ الحد الذي يسنّي الأمرَ المعضل، ولا تردّ الأمر الصحيح الذي يجب أن يُقبَل، ولا تكن من المتعصبين.

يا عباد الله، اسمعوا، ثم فكّروا ثم اقبَلوا إن كنتم طالبين. قد مات نبي الله عيسى، وأخبرنا عن موته خيرُ الخَلق وسيّدُ الورى، ثم شهد على موته كثير من أهل العلم والنهى، كما شهد شاهدٌ عند وفاة نبينا المصطفى، أعني خليفة الله الصدّيق الأتقى. وكذلك ذهب إليه كثير من الأكابر والأئمة، وما جاء لفظ "رجوع" المسيح في نبأ خير البريّة، بل لفظ "النـــزول" إلى هذه الأُمّة. وشتان ما بين الرجوع وبين النـــزول عند أهل المعرفة. فاتقوا الله يا معشر المؤمنين، واقبلوا الحق يا حزب الصالحين.

واعلموا أن قُرْب الله ليس إرثًا مقبوضا لأحد، بل تداولُ هذه الأيام من أمر رب صمد، يلقي الروح على من يشاء، وكذلك تقتضي العظمة والكبرياء. أأنتم تجادلونه على ما فعل أو تقومون محاربين؟ ففكّروا بفكر لا يشوبه زيغ ولا مَيل، وطَهِّروا قلوبكم من كل تعصب ولا يُذْهِبْكم سَيل. أَرُوا تقواكم تقواكم، يا أبناء المتقين. واعلموا أن الله قد أقامني وبعثني وكلّمني، فاتقوا أن تحاربوا الله متعمدين. لا فُلْكَ في يومي هذا إلا فُلْكي، وإن يدي هذه فوق كل يد تبتغي مرضاة ربي، فلا تنبذوا الحق بعد ظهوره، ولا تجعلوا أنفسكم من المسئولين.

وبعزة ربي وجلاله، لستُ بكافر ولا معتدٍ من أقواله ولا مرتدّ ولا من الملحدين. بل جاءكم الحق فلا تُعرضوا عن الحق كارهين. وقد تقوَّى مذهبنا بتظاهر الأحاديث والفرقان، ثم بشهادة الأئمة وأهل العرفان، ثم بالعقل الذي هو مدار التكاليف الشرعية، ثم بالإلهام المتواتر اليقيني من حضرة العزة، فكيف نرجع إلى الظن بعد اليقين؟ بل نحن أوينا إلى الركن الشديد، واعتصمنا بحبل الله المجيد، وما جئنا بمحدَثات كالمبتدعين.

وقد علمتم أن المسيح الموعود، يكسر الصليب المعضود، فهذا هو الزمان إن كنتم موقنين. أما ترون كيف يُعلَى الصليب، وكيف تُفشَّى في شأنه الأكاذيب، وإلى أي حدود بلغ الأمر، وكثر الخنـــزير والخمر، ودِيْسَ الإسلام تحت أقدام المُغْوِين المفسدين؟ أليس في أحاديث خير الكائنات، وأفضلِ الرسل ونُخبةِ المخلوقات، أن المسيح الموعود لا يجيء إلا عند غلبة الصليب وفتنِها الموّاجة في الجهات؟ فهذا هو الأصل المحكم لمعرفة وقت المسيح ومِن أعظم العلامات. فإن كنتم تظنون أن المسيح ما جاء على رأس هذه المائة، وفتنَ النصارى لم تبلغ إلى غايتها المقصودة، فلزمكم أن تعتقدوا بامتداد هذه الفتن إلى رأس المائة الثانية، أو على رأس مائة أخرى من المئين الآتية البعيدة. فلو كان عمر فتن النصارى إلى هذه الأزمنة الطويلة، فما بال الإسلام إلى تلك المدة يا معشر المتفرسين؟

أرضيتم أن تتزايد فتن الدجالين القسيسين وتمتدّ إلى مائتين أو مئين؟ فإن غلبتهم ضروري إلى أيام ظهور المسيح، كما جاء بالبيان

الصريح، في أنباء خير المرسلين. فما تأمرون في هذه القضية؟ أترضون بأن يمهلهم الله لإغواء الناس إلى تلك المدى الطويلة، ويُجاح الإسلام من أصوله المباركة، ولا يبقى أحد على وجه الأرض من المسلمين؟

أيها الناس اعلموا أن وقت ظهور المسيح عند الله هو وقت ظهور فتن الصليب، ولأجل ذلك قيل هو يكسر الصليب، فتدبروا كالمستدلّ اللبيب، وقوموا لله شاهدين. ثم من المسلَّمات* الأمة المرحومة، أن المسيح لا يجيء إلا على رأس المائة، فهذا الرأس بزعمكم قد انقضى خاليا ومضى، وانقطع الرجاء إلى رأس مائة أخرى، ووجب بزعمكم أن تبقى فتنُ قسيسين أعداء الهدى، مع تزايدها إلى تلك المدى، فإن وقتها شريطةُ وقتِ المسيح كما أخبر سيد الورى. فهذا أعظم المصائب على الإسلام أن تعلو شوكة الصليب إلى تلك الأيام البعيدة من الأنام، ويمتد زمان إغواء الخواص والعوام. فما لكم لا تتفكرون، وتبدّلون شُكْرَ نعم الله بالكفران وتنكرون؟ وجاءكم الحق في وقته فتعرضون، وتجعلون حظكم أن تكفروني ولا تتقون. أتكفرون عبد الله المأمور، وتَقْفُون ما ليس لكم به علم من الله الغيور، وتتكلمون مستعجلين؟ أنسيتم ما جاء الناموس به أو كنتم قوما غافلين؟ أتَوانَون في أمر الدين، وأَخْلَدْتم إلى الدنيا مُجِدّين؟ وإذا مررتم بالحق مررتم مستهزئين إلا قليل من

* سهو، والصحيح: "مسلَّمات". (الناشر)

الراشدين. وأكثركم ينظرون إلى أهل الحق بنظر السخط محقّرين. وإن سخط الله أكبر من سخطهم وهو غيور لعباده المأمورين.

وما كنتُ أن أفتري عليه، إنه ربي أحسنَ مثواي، وإنه لا يمهل المفترين. وأنتم تعرفون سنن الله ثم تنقلبون منكرين. وتدرسون كتابه ثم لا تفهمون أيام الصادقين. فضّلكم الله بعقل ودراية، وفراسة مانعة من غواية، فالحجة عليكم أَتَمُّ مِن أحبابكم، وذنبُ الأُمّيّين والمحجوبين كله على رقابكم، إن كنتم معرضين. وإني قد بلّغتُ كما أُمرت، وصدَعتُ بما أُلهِمتُ، فالآن لا عذر لجاحد، ولا محلَّ قولٍ لمعاند، وظهر الأمر وحصحص الحق وقطَع الله دابر المرتابين. ما بقي الأمر مرموزا مكتوما، وصار المستور مكشوفا معلوما، فلا تكتموا الحق بعد ظهوره إن كنتم صالحين.

ولا يختلج في قلبك أن العلماء ينتظرون نزول المسيح من السماء، فكيف نقبل قولا يخالف قول العلماء؟ فإن وفاة المسيح ثابت بالآيات المحكمة القاطعة، والآثارِ المتواترة المتظاهرة، فالأمر الذي ثبت بتظاهر الأحاديث والقرآن، واليقين والبرهان، لا يبلغ شأنَه أمرٌ يؤخذ من ظنون لا مِن سبل الإيقان، ولا يخلو من أوساخ مَسِّ يد الإنسان، فالأمن كل الأمن في قبول أمر تظاهرَ فيه الحديث والفرقان، والعقل والوجدان، وله نظائر في كتب الأولين. فإن النـــزول على طريق البروز قد سُلِّمَ في الصحف السابقة، وأما نزول أحد بنفسه من السماء فليس نظيره في الأزمنة الماضية. أما سمعتَ كيف أوَّلَ عيسى عليه السلام نبأَ نزولِ إيليا عند السؤالات، وصرَفه عن الحقيقة إلى

الاستعارات؟ واليهود أخذوا بظاهر النصوص وما مالوا إلى التأويلات، بل كفروا المسيح على تأويله ورموه بالتكذيبات، وقالوا ملحد يصرف النصوص عن ظواهرها ويُعرِض عن البيّنات، فغضب الله عليهم وجعلهم من الملعونين. فاتقوا جُحْرَ اليهود والقول المردود، واتقوا موطئَ قدمِ الفاسقين، واقبَلوا ما قال عيسى مِن قبل وفي هذا الحين. إن مثل نزول عيسى في هذا الوقت الأغسى، كمثل نزول إيليا فيما مضى، فاعتبروا يا أولي الأبصار، ولا تختاروا سبل الأشرار، ولا تخالفوا ما بين الله على لسان النبيين.

وأما ما جاء في حديث خير الأنبياء، مِن ذكر دمشق وغيره من الأنباء، فأكثرُه استعارات ومجازات من حضرة الكبرياء، وتحتها أسرار في حلل لطائف الإيماء، كما مضت سنة الله في صحف السابقين. ثم من الممكن أن ننـــزل بساحة دمشق أو أحدٌ من أتباعنا المخلصين، وما جاء في الحديث لفظُ "النـــزول من السماء" ليرتاب أحد من المرتابين. أو لم تَكْفِكم في موت المسيح شهادةُ الفرقان وشهادة نبينا المصطفى رسول الرحمن؟ فبأي حديث تؤمنون بعدهما يا معشر الإخوان؟ ما لكم لا تتفكرون كالمحققين؟ أعندكم سندٌ من الله ورسوله خير الورى، في معنى التوفّي الذي جاء في القرآن الأزكى، فأنتم تتّكئون على ذلك السند وتسلكون سبل التقى، أو تؤوّلونه من عند أنفسكم ومن الهوى؟ فإن كان سند فأخرِجوه لنا إن كنتم صادقين. ولن تستطيعوا أن تأتوا بسند، فلا تُخْلِدوا إلى فَنَدٍ، إن كنتم متقين. وإياكم والتفسيرَ بالرأي ولا تتركوا الهدى،

فتؤخذون من مكان قريب ولا يبقى لكم عذر ولا حجة أخرى، فما لكم لا تخافون يوم الدين؟

وأما نحن فما نقول في معنى التوفّي إلا ما قال خير البريّة، وأصحابه الذين أوتوا العلم من منبع النبوة، وما نقبل خلاف ذلك رأيَ أحدٍ ولا قول قائل، إلا ما وافقَ قولَ الله وقولَ خير المرسلين. وإذا حصحص الحق في معنى التوفّي مِن لسان خاتم النبيين، وثبت أن التوفّي هو الإماتة والإفناء، لا الرفع والاستيفاء، كما هو زعم المخالفين؛ فوجب أن نأخذ الحق الثابت بأيادي الصدق والصفاء، ولا نبالي قولَ السفهاء والجهلاء، ونؤوّل كل ما خالف الأمر الثابت بالنصوص والبراهين، ولا نقدّم الظنون على اليقين، ولا نؤثر الظلمة على الأنوار، ولا قولَ المخلوق على قول الله عالِمِ الأسرار. أنترك البينات للمتشابهات، أو نضيع اليقينيات للظنيات؟ ولن يفعل مثل هذا إلا جهول أو سفيه من المتعصبين.

ألا ترى أن نزول المسيح عند منارة دمشق يقتضي أن ينـــزل هو بنفسه عند تلك البقعة، وذلك غير جائز بالنصوص القاطعة المحكمة. ولا شك أن اعتقاد نزول المسيح عند ذلك المكان يخالف أمر موته الذي يُفهَم مِن بينات نصوص القرآن. ولأجل ذلك ذهب الأئمة الأتقياء إلى موت عيسى، وقالوا إنه مات ولحق الموتى، كما هو مذهب مالك وابن حزم والإمام البخاري، وغير ذلك من أكابر المحدثين، وعليه اتفق جميع أكابر المعتزلين. وقال بعض كرام الأولياء إن حياة عيسى، ليس كحياة نبينا بل هو دون حياة إبراهيم

وموسى، فأشار إلى أن حياته مِن جنس حياة الأنبياء، لا كحياة هذا العالم كما هو زعم الجهلاء. واعلم أن الإجماع ليس على حياته، بل نحن أحق أن ندّعي الإجماع على مماته كما سمعتَ آراء الأولين.

وتعلم أن أكثر أكابر الأُمّة ذهبوا إلى موته بالصراحة، والآخرون صمتوا بعد ما سمعوا قول تلك الأئمة، وما هذا إلا الإجماع عند العاقلين. ثم تعلم أن كتاب الله قد صرّح هذا البيان، فمَن خالفه فقد مان، ولا نقبَل إجماعا يخالف القرآن، وحَسْبُنا كتاب الله ولا نسمع قول الآخرين. ومِن فضل الله ورحمته أن الصحابة والتابعين، والأئمة الآتون بعدهم ذهبوا إلى موت عيسى، ورآه نبينا ﷺ ليلةَ المعراج في أنبياء ماتوا ودخلوا دارا أخرى، ورؤيته ليس بباطل بل هو حق واضح وكشفٌ من الله الأعلى.

فما لك لا تقبل شهادة الرسول المقبول، ولا تقبل شهادة القرآن وترضى بالقول المردود كالجهول، ولا تنظر بعين المحققين. ثم لا يمكن لأحد أن يأتي بأثر من الصحابة أو حديث من خير البريّة، في تفسير لفظ التوفي بغير معنى الإماتة، ولا يقدرون عليه أبدا ولو ماتوا بالحسرة، فأي دليل أكبر من ذلك لو كان في قلب مثقال ذرة من الخشية؟ فإن بحث الوفاة والحياة أصلٌ مقدَّم في هذه المناظرات، فلما حصحص صدقُنا في الأصل ما بقي بحثٌ في الفروعات، بل وجب أن نصرفها إلى معنى يناسب معنى الأصل، كما هو طريق الديانة والعدل، ولن نقبل معانيَ تنافي الأصل وتستلزم التناقض، بل نرجعها إلى الأصل المحكم كالمحققين.

وقال بعض المخالفين من العلماء المجادلين: إن معنى التوفي إماتة، وليس فيه شك ولا شبهة، فإنها* ثبت بلسان النبي وصحابته، وما كان لأحد أن يعصي بيانَ فُوْهته، بل فيه مخافةُ كفر ومعصية، وخوفُ نكال وعقوبة، وخسران الدين؛ ولكنا لا نقول أن عيسى عليه السلام تُوُفِّيَ وصار من الأموات، ليلزمنا القول بالبروز في نبأ خير الكائنات، بل معنى الآية أنه سيُتَوَفّى بعد نزوله، فلم يبق من الشبهات، وبطل قول المعترضين.

وأما جوابنا فاعلم أن هذا القول قد قيل مِن قلة التدبر والاستعجال، ولو فكّر قائله لندم من هذا القيل والقال، ولاستغفر كالمذنبين المفرطين. أما تدبَّرَ آيةَ ﴿فلمّا تَوفَّيتَني﴾✪ بالفكر والإمعان؟ فإنه نصٌّ صريح على أن عيسى مات في سابق الزمان، لا أنه يموت في حين من الأحيان، فإن الصيغة تدل على الزمان الماضي، والصرف ههنا كالقاضي.

ثم إن كنتَ لا ترضى بحكم الصرف، وتجعل الماضي استقبالا بتبديل الحرف، فهذا ظلمٌ منك ومن أمثالك، ومع ذلك لا يفيدك غلوُّ جدالك، وتكون في هذا أيضا من الكاذبين. فإن المسيح يقول في هذه الآيات: إن قومي قد ضلوا بعد موتي لا في الحياة، فإن كنتَ تحسب عيسى حيًّا إلى هذا الزمان في السماء، فلزِمك أن تقرّ بأن النصارى قائمون على الحق إلى هذا العصر لا من أهل الضلالة

* سهو، والصحيح: "فإنه". (الناشر)
✪ المائدة: ١١٨

والهواء. فأين تذهب يا مسكين، وقد أحاطت عليك البراهين، وظهر الحق وأنت تكتمه كالمتجاهلين.

أيها الغالي اتَّقِ سبلَ الغلواء، واترُكْ طريق الخيلاء، ولا تُغضِب الله بالمعصية، ولا ترِدْ مَوردَ المأثمة، وسارِعْ إلى التوبة والمعذرة، ولا تكن كالذي بَسَأَ بأكل الجيفة، وما اكترث لما فيه من العَذِرة، وفِرَّ إلى الله كالمستغفرين.

أَطِعْ ربَّك الجبّارَ أهـــلَ الأوامرِ ... وخَفْ قهرَه واترُكْ طريق التجاسُرِ
وكيف على نار النَّهَابِر تصبرُ ... وأنت تَأَذَّى عند حرِّ الهَـــواجرِ
وحُبُّ الهوى والله صِـــلٌّ مدمِّرٌ ... كمَلْمَسِ أفعى ناعمٍ في النواظرِ
فلا تخـــتَرُوا الطَغْوى فإنّ إلهنا ... غيورٌ على حُرُمـــاته غير قاصرِ
ولا تقعُدَنْ يا ابْنَ الكرام بمُفسدٍ ... فترجعَ من حُبِّ الشرير كخاسرِ
ولا تحسَبَنْ ذنبًا صغيرًا كهـــيِّنٍ ... فإن وَدادَ اللَّمَمِ إحدى الكبائرِ
وآخرُ نصحي توبَـــة ثم توبَـــة ... وموتُ الفتى خيرٌ له من مَناكِرِ

أيها الصلحاء! إنّي بلّغتُكم الحق لإتمام الحجة، ولو كان فيه بعض المرارة، فتدبَّروا.. نصَركم الله.. إن الله ينصر المتدبّرين. ولا يختلج في قلبكم أن المسيح الموعود يُحارب الكفار، ويقتل الأشرار، ويخرج كملوكٍ مقتدرين. وليست ههنا هذه القوة، ولا العساكر والشوكة، وسطوة السلاطين؟

فاعلموا أن هذه الحكايات والروايات ليست بصحيحة، ويَعرِف سُقْمَها كلُّ من تفكّر بسلامة قريحة، ويتدبّر كتب المحدّثين. وأنتم

تعلمون أن صحيح الإمام البخاري أصح الكتب بعد كتاب الله الفرقان، وقد جاء فيه أن المسيح "يضَع الحربَ" ففكِّروا بالإمعان. فإن هذه الفقرة وأمثالها تشفيكم وتُخرج شكوك الجَنان، لأنها تدلّ أن المسيح لا تحارب* الناس، بل يُفحم الأعداء ويزيل الأوهام والوسواس، ويأتي بكلمات حِكَميّة، وآياتٍ سماويّة، حتى يُخرِج من الصدور أضغانها، ويقتُل شيطانها، ولكن لا بسيوف ورمح وقناة، بل بحربة من سماوات، ويستفتح بتضرعات وأدعية، لا بسهام وأسنّة، ولأجل ذلك لا يحارب يأجوجَ ومأجوج، بل يسأل الله أن يعطيه من لدنه الغلبةَ والعروج، فيكون في آخر الأمر من الغالبين. فالقول الذي يخالف هذا الحديث الصحيح والخبر الصحيح مردود وباطل ولا يقبله إلا جاهل من الجاهلين.

ثم اعلموا أن قتل الناس من غير تفهيمٍ وتبليغٍ وإتمامِ حجّة أمرٌ شنيع لا يرضى به أهل فطنة، ولا نورُ فطرة، فكيف يُعزَى إلى الله العادل الرحيم، والمنّان الرؤوف الكريم؟ ولو كان هذا جائزًا لكان أحقَّ به سيدُنا خير البريّة، وقد سمعتم أنه صبَر مدّةً طويلة على تطاول الكَفَرة الفَجَرة، ورأى منهم كثيرا من الظلم والأذيّة، وأنواع الشدّة والصعوبة، حتى أخرجوه من البلدة، ثم أهرعوا إليه متعاقبين مُغاضبين بنيّة القتل والإبادة، فصبر صبرًا لا يوجد نظيره في أَحدٍ من رُسل حضرة العزّة، حتى بلغ الإيذاء منتهاه، وطال مَداه، فهناك

* سهو، والصحيح: "يحارب". (الناشر)

نزلت هذه الآية من الله السميع الخبير: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾○

فانظروا كيف صبر رسول الله وخير الرسل على ظلم الكَفَرة إلى برهة من الزمان، ودفَع بالحسنة السيئةَ حتى تـــمّتْ حُجّة الله الديّان، وانقطعت معاذير الكافرين. فاعلموا أن الله ليس كقصّاب يعبِط الشاةَ بغير جريمة، بل هو حليم عادل لا يأخذُ من غير إتمام حجّة، وهو الذي أرسلني من حضرته العليّة، فإياكم وحُجُبَ الجهل والعصبية.

وكم من العلماء والصلحاء اتّبعوني مع كمال العلم والخبرة، وكُفِّروا ولُعِنوا وأُوذُوا بأنواع الفِرْية والتهمة، فاستقاموا بما أشرقَ لهم نورُ الحق والمعرفة، وصدّقوا قولي مستيقنين، وآمَنوا مصدّقين غير مرتابين، وألّفوا كُتُبًا ورسائل ليعلم الناس أنهم من الشاهدين. وترى نور الصدق يتلألأ في جباههم، وتخرج كَلِمُ الحِكم من أفواههم، والاستقامةُ تترشّح مِن سموئهم، والزهادة يُشاهَد في وجوههم، لا يجترئون على المحارم ويخافون رب العالمين، وتتنـــزّل عليهم سكينة كل حين. زكّى الله جوهر نفوسهم، وزاد عرفانهم، وجلّى مرآة إيمانهم، وسقاهم كأس صدقٍ وعفّة، وأعطاهم أنواع علمٍ ومعرفةٍ، وأدخلهم في عباده الصالحين. فقاموا لله لإطاعتي، وتركوا إرادتهم لإرادتي، وخالفوا لي أزواجهم وأحبابهم، وأبناءهم وآباءهم،

○ الحج: ٤٠

وجاءوني تائبين. إنهم من قوم أثنى عليهم ربي وألهمني وقال: "تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفيضُ مِنَ الدَّمْعِ، يُصَلُّونَ عَلَيْكَ. رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلإِيمَانِ فَآمَنَّا. رَبَّنَا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ."

فهُم مني وأنا منهم، إلا قليلٌ من الغافلين، فإنهم لحقوا بنا بألسنهم لا بقلوبهم، أو أَمْحَلوا بعد شُؤْبُوبِهم، والله يعلم ما في صدور العالمين. فطوبى للذين سمعوا وصايا الحق واستقاموا عليها وما سمِعوا بعدُ قولَ نسائهم أو أبنائهم أو عشيرتهم، وما صاروا كالكسالى بل زادوا في اليقين.

فالحاصل أن الرشد قد تبيّن، وأظهر الله الحق وبيَّن، وأشرقتْ أيام كانت تنتظرها الأمم وتترجّاها الفِرق، وكلُّ أمرٍ موعود حانَ، وخُسِفَ القمرُ والشمس في رمضان، ورأيتم أن القِلاص تُركتْ، والعشار عُطِّلتْ، والبحار فُجّرتْ، والصحف نُشرت، ويأجوجَ ومأجوج وأفواجهما أُخرجتْ، والجبال دُكّتْ، ومُقدِّمات الساعة ظهرتْ، والفتن كمُلتْ، والأرض زُلزلتْ، والسماء انفجرت، فاتقوا الله ولا تكونوا أوّل المعرضين.

وقد تفرّدتُ بفضل الله بكشوفٍ صادقة، ورؤيا صالحة، ومُكالماتٍ إلهية، وكلماتٍ إلهامية، وعلومٍ نافعة، وزادني ربي بسطةً في العلم والدين. وأرسلني مجدِّدًا لهذه المائة، وسمّاني عيسى نظرًا على المفاسد الموجودة، فإن أكثرها من قومٍ مسيحيين.

ومَن جاءني بقلب سليم ونيّة صحيحة، وإخلاصٍ تامٍّ وإرادةٍ صادقةٍ، ومكث عندي إلى مدة، فيكشف الله عليه سرّي في صحبتي،

ويُريه من بعض آياتٍ وعجائبٍ لإراءة منـــزلتي، إلا الذين يجيئونني غافلين منافقين، ولا يطلبون الحق كالخاشعين التائبين، فأولئك الذين بعدوا مني ولو كانوا قريبين. رضوا بالبعد والحرمان، وما أرادوا أن يُعطَوا حظًّا من العرفان، وما حملهم على ذلك إلا فساد نيّاتهم، وقلّة مُبالاتهم، وغفلتهم في أمر الدين. والحق والحق أقول، إن أحدًا من الناس لا يراني، إلا بعد ترك الأهواء والأماني، وليس مني من يقول: "أبنائي ونسواني، وبيتي وبستاني"، وإنه من المحجوبين. وإني جئت قومي لأمنعهم من مساوئ الأخلاق وشُعب النفاق، وأُريهم طريق المخلصين الموحّدين.

ولا دينَ لنا إلا دين الإسلام، ولا كتاب لنا إلا الفرقان كتاب الله العلاّم، ولا نبيّ لنا إلا محمدٌ خاتم النبيين ﷺ وبارَكَ وجعل أعداءه من الملعونين. اشهدوا أنّا نتمسّك بكتاب الله القرآن، ونتّبع أقوال رسول الله منبعِ الحق والعرفان، ونقبَل ما انعقد عليه الإجماع بذلك الزمان، لا نزيد عليها ولا ننقص منها، وعليها نحيا وعليها نموت، ومن زاد على هذه الشريعة مثقال ذرّة أو نقص منها، أو كفر بعقيدة إجماعيّة، فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين.

**هذا اعتقادي**، وهو مقصودي ومرادي، ولا أخالف قومي في الأصول الإجماعية، وما جئتُ بمحدَثاتٍ كالفِرق المبتدعة، بيد أني أُرسلتُ لتجديد الدين وإصلاح الأمّة، علَى رأس هذه المائة، فأُذكّرهم بعض ما نسوا من العلوم الحِكَميّة، والواقعات الصحيحة الأصلية. وجعلني ربي عيسى ابن مريم علَى طريق البروزات الروحانية

لمصلحة أراد لنفع العامة، ولإتمام الحجّة على الكَفَرة الفَجَرة، وليُكمِّلَ نبأَه وليُنجزَ وعدَه ويُتمّ كلمته، ويُفحِم قومًا مجرمين.

**هذا دعواي** وتلك دلائلي، ولن تجدوا زَيْغًا في دعواي ومسائلي، وإن كتابي هذا لبلاغٌ لقوم طالبين. ففكّروا يا علماء القوم، وفتّشوا الأمر قبل اللَوم. يا عباد الله اسمعوا، واتقوا الله ثم اتقّوا، وإني بلّغتُ ما أمر به ربي، وما بقي الإخفاء. فاسمعي أيتها الأرض، واشهدي أيتها السماء.

وما أخشى الخَلق ومكائدهم، وأتّبع الحق ولا أتّبع زوائدهم، وإني واثق بما وعد ربي، وهو مَوئلُ كلِّ أَمَلي وأَرَبي. إن الأرض والسماء تتغيران، والصيف والشتاء ينقلبان، ولكن لا يتغير قول الرحمن، ولا ينقلب مشيئته بمكر الإنسان، وإن مُحاربيه من الخاسرين.

أيها الناس لا تُعرِضوا عن أيام الله وضيائها، ولا تغفلوا فحسراتٌ بعد انقضائها، ولا تَعْلُوا ولا تظلموا ولا تعتدوا إن الله لا يُحبّ المعتدين. اتقوا الله يا معشر المسلمين والمسلمات، وإنما التقوى لهذه الأيام والأوقات، وفكِّروا وقوموا فُرادَى فُرادَى، ثم فكِّروا كالأتقياء لا كرجُلٍ عَادَى، واسألوا الله مبتهلين طالبين.

وكيف رضي عقلكم وإيمانكم، ودرايتكم وعرفانكم، بأوهام لا تجدون في كتاب الله أثرًا منها؟ وتتركون طرق السلامة وتُعرضون عنها، ولا تتّبعون أصلاً مُحكَمًا بَيِّنَ الوقوع، وتأخذون بأنيابكم صُوَرَ مسائلِ الفروع، مع أنها في أنفسها مملوّة من الاختلافات

والتناقضات، ثم لا يوجد تطابُقها بالأصل الذي هو لها كالأمّهات، وأين التطابق بل يوجد كثير من التباين والمنافاة. فانظروا كيف جمعتم في عقائدكم مِن أنواع الشناعة والتناقض والفرية، وأمَدْتم بجهلكم أعداء المِلّة وعداء الشريعة المقدّسة، فهم يصولون على الحق مستهزئين.

وأمّا السلف الصالحون فما كانوا كمثلكم في الاعتقادات، ولا في الخيالات، بل كانوا يُفوّضون إلى الله علم المخفيّات، وكانوا متّقين. وما كان جوابهم في هذه المسائل، عند اعتراض المعترض السائل، إلا تفويض الأمر المخفيّ إلى الله الخبير العليم. وكانوا يؤمنون إجمالاً ويُفوّضون التفاصيل إلى الله الحكيم. فلأجل ذلك ما بحثوا عن تناقضات هذه الأنباء، وما أرادوا أن يتكلّموا فيها قبل وقوعها خوفًا من جُناح الزلّة والاعتداء، وقالوا نؤمن بها ولا ندخل فيها وما كانوا على أمرٍ مُصرّين.

ثم خلف من بعدهم خلف وفَيْجٌ أعوَجُ، أضاعوا وصاياهم وسُبُلهم، وبدأ فيهم التعلّي والتموّج، فتكلموا في أنباء الغيب بغير علم مُجترئين. وبحثوا عن أمور ما كان لهم أن يبحثوا عنها، فضلّوا وأضلّوا وكانوا قومًا عمين. أما ترى كيف نحتوا مِن عند أنفسهم نزول المسيح من السماء؟ ولن تجد لفظ السماء في ملفوظات خير الأنبياء ولا في كَلِمِ الأوّلين.

وأمّا نفس النـــزول فهو حق ولا نجادلهم فيه، ولا نردّه عليهم بل إنّا نؤمن به كما يؤمنون وما نحن بمنكرين. وليس عندنا إلا

تسليمٌ في هذا الباب، ومن أنكر فقد كفر بما جاء في الآثار والكتاب، وإنه من الملحدين. بيد أننا نحمِل هذا النـــزول على أمرٍ فيه أمنٌ من التناقضات، ونجاة من الاعتراضات، وهو النـــزول البروزي الذي قد جرت سُنّة الله عليه من زمن الأوّلين. فليس إنكارنا إلا من نزول المسيح بنفسه من السماوات، فإنه يخالف سُنن الله والبينات من الآيات، فإن القرآن فرض علينا أن نؤمن بوفاة المسيح* ونحسبه من الأموات، فالقول بحياة المسيح ورجوعه إلى دار الفانيات، يستلزم إنكارَ القرآن والمحكمات البيّنات، فلا يتكلم بمثل هذا إلا الذين هم غُلْفُ القلوب، وكالمحجوب ومن المعرضين. أنترك لظنونٍ واهيةٍ القرآنَ، وننبذ من أيدينا اليقين والعرفان، ونرجع إلى أفسَدِ القولِ مِن أصلَحه، ونُلحق أنفسَنا بالجاهلين؟ ومن يتدبر آيات الله، ولا يُعمي عينَ تمَيُّزِه مِن بيّنات الله، فلا بد له أن يؤمن بموت المسيح، ويقرّ بأن النـــزول على سبيل البروز الصريح، ويُعرِض عن الظالمين.

أسمعتم قبل ذلك رجلاً ذهب من الدنيا ثم نزل بعد بُرهة من السماء؟ أتجدون نظيره في أحدٍ من الأنبياء؟ وقد سمعتم كيف أُوِّلَ مِن قبل في نزول إلياس، يا أولي الأبصار والقياس. ورأيتم قومًا حملوا قصة نزول إيليا على ظواهرها، وكفّروا المسيح بخُبث النفس وأباهِرِها، وضُربت عليهم الذلّة والمسكنة وجُعلوا من الملعونين.

---

* **نوت**: جاء في بعض الأحاديث من رسول الله ﷺ بالتصريح أن عمره نصفُ عمـــرِ المسيح. قال صاحب الفتح: هذا حديثٌ صحيحٌ ورجاله ثقات. منه

وإن كنتم لا تؤمنون بموت عيسى يا معشر الإخوان، وترفعونه حيًّا إلى عرش الرحمن، فما آمنتم بكتاب الله الفرقان، **فانظروا مَنْ أحقُّ بالأمن والأمان**، ومَن اتّبع ظنونًا وترَك سبل الإيقان. ثم أنتم تُكفّرون المسلمين وتكذّبون الصادقين، وتطيلون الألسنة على أهل الحق واليقين. أكان هذا طريق التقوى والمتّقين؟

وقد سمعتم أنّا قائلون بنـــزول المسيح، والمقرّون به بالبيان الصريح، وإنه حقّ واجب ولا ينبغي لنا ولا لأحد أن يُعرض عنه كالمفسدين، أو يمتعض من قبوله كالمتكبرين. فإنه لا يُعرض عن الحق إلا ظالمٌ معتدٍ خلاّب، أو فاسق مُزوِّر كذّاب، ويُعرَف بقبوله قلبٌ توّابٌ. فالآنَ انظروا! أنحن نُعرِض عن القبول أو كنتم معرضين؟ أتظنون أن المسيح ابن مريم سيرجع إلى الأرض من السماء؟ ولا تجدون لفظ الرجوع في كَلِمِ سيّدِ الرسل وأفضل الأنبياء. أَأُلْهِمْتم بهذا أو تنحتون لفظ الرجوع من عند أنفسكم كالخائنين؟

ومن المَعلوم أن هذا هو اللفظ الخاص الذي يُستعمل لرجل يأتي بعد الذهاب، ويتوجّه من السفر إلى الإياب، فهذا أبعدُ مِن أبلَغِ الخَلقِ وإمامِ الأنبياء، أن يترك ههنا لفظ الرجوع ويستعمل لفظ النـــزول ولا يتكلم كالفصحاء والبلغاء، فلا تنظروا كلامي هذا بنظر الاستغناء، ولا تنبذوه وراء ظهوركم كأهل الكبر والمراء، بل فكّروا كل الفكر بجميع قوة الدهاء، فإنّ هذا أمرٌ جليل الخطب عظيم القدر في حضرة الكبرياء، وقبوله بركة، وتسليمه فطنة وسعادة، وردُّه بلاء على أهله المخذولين.

ومن العلماء من يقول إن لفظ التوفّي قد يجيء في لسان العرب بمعنى الاستيفاء، وهو المراد ههنا في كلام حضرة الكبرياء، وإذا طُلِبَ منهم السند فلا يأتون بسند من الشعراء، وقد كفروا بمعنى بَيَّنَه خاتَمُ الأنبياء، وما أتوا بمعنى أبلغ منه عند الفصحاء، وما أثبتوا دعواهم بل نطقوا كالعامهين. وما أُعطُوا وُسْعةً في هذا اللسان، ولا يعلمون إلا الحقد الذي هو تُراثهم من قديم الزمان. فيا حسرة عليهم! ما لهم من معرفة في العربية، وليس عندهم من غير الدعاوي الواهية، ومع ذلك لا يتناهَون من القيل والقال، ولا يتركون نزاعهم بل يتصدّون لهذا النضال، ويقومون مع الجهل المحكم للجدال، وكذلك هتكوا أستارهم بأيديهم في هذا المقام، بما كانوا غافلين من موارد الكلام. سكتوا ألفًا، ونطقوا خلفًا، وما نبسوا بكلمة حكمية كالعاقلين. أَرْأَوا أنفسهم كمَخاضٍ، وظهروا كخَلفَة، ثم إذا حان النتاج فما ولدوا إلا فأرة، أو أشوَهَ وأصغَرَ من فُوَيسقة. هذا علمهم، وأفسدُ منها عملُ تلك العالمين. يأمرون الناس بالبرّ وينسون أنفسهم، ويقولون ما لا يفعلون. وإذا جُعلوا حَكَمًا فلا يُقسطون، ويُحبّون أن يُحمَدوا بما لا يعملوا*، وإذا صلّوا فصلّوا مُرائين. ويغتابون في المساجد ويأكلون لحم إخوانهم المسلمين، إلا قليل من الخاشعين.

وأمّا لفظ التوفّي الذي يُفتّشونه في اللسان العربية، فاعلم أنه لا يُستعمل حقيقةً إلا للإماتة في هذه اللهجة، سيّما إذا كان فاعلُه اللهَ

* *يبدو أنه سهو، والصحيح: "بما لم يعملوا" أو "بما لا يعملون". (الناشر)*

والمفعولُ به رجُلاً أو من النسوة، فلا يأتي إلا بمعنى قبض الروح والإماتة. وما ترى خلاف ذلك في كتب اللغة والأدبية◈، ومَن فتّش لغات العرب، وأنضى إليها رِكاب الطلب، لن يجد هذا اللفظ في مثل هذه المقامات إلا بمعنى الإماتة والإهلاك من الله رب الكائنات. وقد ذُكر هذا اللفظ مرارًا في القرآن، ووضعه الله في مواضع الإماتة وأقامه مقامها في البيان. والسرّ في ذلك أن لفظ التوفّي يقتضي وجود شيء بعد الممات، فهذا ردٌّ على الذين لا يعتقدون ببقاء الأرواح بعد الوفاة، فإن لفظ التوفّي يؤخذ من الاستيفاء، وفيه إشارة إلى أخذ شيء بعد الإماتة والإفناء، والأخذُ يدل على البقاء، فإن المعدوم لا يؤخذ ولا يليق بالأخذ والاقتناء. وهذا من العلوم الحِكَمية القرآنية، فإنه رجع القومَ إلى لسانهم المباركة الإلهامية، ليعلموا أن الأرواح باقية والمعاد حق، ولينتهوا من عقائد الدهريين والطبعيين. فلما كان الغرض من استعمال هذا اللفظ صَرْفَ القلوب إلى بقاء الأرواح، فمعنى التوفّي إماتة مع إبقاء الروح، فخُذِ الحق* واتّقِ طرق الجُناح. ولا يجادل في هذا إلا الجاهل الذي لا يعلم العربية، أو المتجاهل الذي يُغري مِن خبثه العامّةَ. ومن انتصب لإزراء هذا الكلام، وقام للتكذيب والإفحام،

---

◈ *سهو، والصحيح: "الأدب". (الناشر)*

* الحاشية: لمّا كان الملحوظ في معنى التوفّي مفهوم الإماتة مع الإبقاء، فلأجل ذلك لا يُستعمل هذا اللفظ في غير الإنسان، بل يُستعمل في غيره لفظ الإماتة والإهلاك والإفناء. مثلاً لا يقال توفّى اللهُ الحمارَ، أو القنفذ والأفعى والفأر، فإن أرواحها ليست بباقية كأرواح الآدميين.

فعليه أن يعرض في هذا الباب شعرًا من أشعار الجاهلية، أو كلامًا من كَلِمِ فصحاء هذه المِلّة. وإن لم يفعلوا، ولن يفعلوا، ولم ينتهوا من الشرارة، فقد جمعوا لعنتَين لأنفسهم بشامة النفس الأمّارة. اللعنة الأولى أنهم ما صدّقوا قولَ خير البريّة، وما اطمأنت قلوبهم بشهادة إمام المِلّة، واللعنة الثاني◈ أنهم فتّشوا اللغة شاكّين، ثم رجعوا يائسين بالندامة التي هي تشابه عذاب الهاوية، ثم قعدوا مخذولين.

واعلم أن أحدًا من رجالٍ ذي غيرة، لا يقِف متعمّدًا موقف مندمة، إلا الذي نزع عن نفسه ثوبَ حياءٍ وإنسانية، ورضِي بكل تبعة ومعتبة، وألحَقَ نفسه بالخاسرين الملومين. وما تُجادلونني في لفظ التوفّي إلا من السفاهة، فإني أعلم ما لا تعلمون. وإني تورّدتُ بحر العربية وتبحّرتُ، وعلَوتُ شواهِقَها وتوغّلتُ، واجتنيتُ ثمارها وتخبّشتُ، وفحصتُ كلام القوم وتصفّحت، فما وجدتُ لفظ التوفي في كلامٍ أو شعر الشعراء، إلا بمعنى الإماتة مع الإبقاء، وما استعملوا في غيره إلا بعد إقامة القرينة والإيماء، وما جاءوا به في صورة كون الله فاعلاً إلا بهذا المعنى، ويعلمه كل أحدٍ من علماء العرب من الأعلى إلى الأدنى؛ وإذا كتبتَ مثلاً إلى أحدٍ من أهل هذا اللسان، أن الله تَوَفّى فلانا من الأحباب أو الجيران، فلا يفهم منه هذا العربي إلا وفاة ذلك الإنسان، ولا يزعم أبدًا أنه أنامه أو رفعه

◈ سهو، والصحيح: "الثانية". (الناشر)

بالجسم من ذلك المكان، بل يسترجع على موته كما هو عادة المؤمنين، فويل كل الويل للمنكرين.

أفتنحتون للمسيح معنى وللعالمين كلهم معانيَ أخرى؟ تلك إذًا قسمةً ضيزى. فما لكم لا يوقظكم نصاحةٌ، ولا يُنبّهكم صراحة، ولا ترجعون إلى الحق كالمتقين. أكفّرني المكفِّرون مع هذا العلم واللياقة؟ أجادلوني بهذه البلاغة والطلاقة؟ فليموتوا متندّمين. ولا أظن أن يتندّموا.. إنهم قوم لا يُبالون لعن اللاعنين؛ إذا أفظعت الوقاحةُ، فكلُّ خزيٍ الراحة. أكبّوا على جارهم، وذهلوا عن دارهم، فهتك الله أستارهم، وجعلهم من المهانين. وسلّطني عليهم فاختفَوا كالطير في الوُكنات، واقتنّوا كالوعل عند التعاقبات، وعرَضْنا كَلْكَلَنا للمناظرات، فأُهْرِعوا كالأوابد إلى الفلاة، وتصدّينا لهم لأنواع الدعوة، وما وضعنا عن كاهلنا عِصام هذه القربة، وما كنّا لاغبين. نعَب علينا كلُّ أعورَ ذي غواية، ونعَق علينا كلُّ ابنِ داية، محرومٍ عن دراية، وعوَى كلُّ خليعٍ خليعِ الرسن، ونبَح كل كلب ولو كان كاليَفَن، فإذا قمنا فكانوا مَديدَ الوَسَن، أو كانوا من الميتين.

لما رأى النَّوكَى خلاصةَ أَنْصُري ... فـــرُّوا وولَّوا الدُّبر كالمتشوّرِ
إنْ يـــشتِموا فلقد نزَعتُ ثيابهمْ ... وتركـــتُهم كالمـــيّت المتنكّرِ
هم يشتِمون ولا أخاف لسانهم ... إني أرى ألطافَ ربٍّ أكبرِ
نزلتْ ملامـــةُ لائمي مِن حُبّه ... مِني بمنـــزلة المحبّ المـــوثَرِ
يا لائـــمي دَعْ كلَّ لوم وانتظِرْ ... سترَى بروقَ الحق بعد تبصُّرِ
جلّـــتْ وصايـــانا هدًى لكنّها ... كبُرتْ عليك وليتَها لم تكبُرِ

أيها الناس! تَدبَّروا لطرفة عين، ولا تُهلكوا أنفسكم لِمَينٍ. إن موت المسيح ثابتٌ بالقرآن، ثم بالحديث، ثم بشهادة اللغة وأهل اللسان، ثم بالعقل والفراسة والوجدان، ثم بنظائر سابق الزمان، فلا يزيل الأمرَ الثابت كيدُ الإنسان. والنـــزول أيضًا حق نظرًا على تواتُر الآثار، وقد ثبت مِن طرقٍ في الأخبار، فتعالوا إلى كلمة ترفع هذا التناقض من بين بعض الأحاديث وبين مجموعة أحاديث أخرى والفرقان، فهو البروز الذي ثابت في سُنن الرحمن، ولا شك أنه يهب أنواع الاطمئنان. ولا ريب أنّا إذا اعتمدنا على طريق البروز في معنى نزول المسيح، كما ذُكر نزول إيليا بالتصريح، فحينئذ تنطبق العبارات، وترتفع الشبهات، وتطمئن قلوب الطالبين. ولولا هذا فلا سبيل إلى أن نعتقد مع القرآن بالآثار والأخبار، فالخير كل الخير في عقيدة البروز يا أولي الأبصار، وليس هذا بدعة بل قد مضت فيها نظائر من رب العالمين.

فاعلموا أيها الظانون ظن السوء والازدراء، والمُهْرعون إلى الجدال والمِراء، أني ما أريد إلا خيركم من حضرة الكبرياء، وأقصد أن أنقلكم من خَبْت إلى العلياء، ومِن ذات حِقاف إلى حديقة النعماء، ومِن ذات كُسور إلى سبيل السواء، فهل أنتم تريدون خيركم أو كنتم من الآبين؟ أليس الزمان كَلَيلٍ أرخَى سدوله، والدينُ كغريب فقَد عُزْهُوله؟ أتخافون عند قبولي أن تفقدوا ما حِيزَ مَغنمًا، أو تُضيعوا الفضل الذي صار بالنَشَب تَوأَمًا؟ كلا.. إنه ظن

لا يليق بأهل العلم والمعرفة، والعزةُ كلها لله في هذه والآخرة. إن الرجال لا يخافون ولو ذُبحوا بالمُدى، أو نُزع عنهم ثوب المحيا.

أما تسلّتْ عِماياتكم إلى هذا الزمان؟ وما لي أجد كلَّ أحدٍ منكم ألوَى في الكلام والبيان؟ وتعلمون أنني ما جئت بمفتريات كأهل الفسق والهنات، وما فتحتُ عليكم باب البدعات، بل هو حسراتٌ عليكم بعد الممات. فأين آذان تسمعون بها؟ وأين أعين تبصرون بها؟ وأين قلوب تفقهون بها؟ وما لكم لا تتركون الخرافات المتدلّسة، ولا تقبلون الجواهر النفيسة؟ تمنعون المسلمين من المساجد، وتُعظّمون لدنياكم أهل العَساجد. حصحص الحق فلا تقبلون، وتبيّن الرشد فلا ترجعون، وتُكفِّرون أهل القِبلة ولا تمتنعون، أتموتون في يوم أو أنتم من الباقين؟ كيف تجدون لذة الإيمان بهذه التعصّبات؟ وما بقي حلاوته بتكفير المؤمنين والمؤمنات. حسبتم أعراضنا كفَيْءٍ، وتُغرُون علينا العوامَّ وتُلقون إليهم شيئًا بعد شيء، وأفسدتم الناس بمكائدكم وتزويراتكم، وصرفتم قلوبهم عن الحق بخرافاتكم. فاعلموا أن إثم الأُمّيّين عليكم يا معشر الخادعين. أحسبتم تكفير المؤمنين أمرًا هيّنًا، وتكذيب الصادقين شيئًا خفيفًا، وهو عند الله عظيم؟ ولم تزالوا* كنتم مصرّين على الإنكار، وما شفقتم وما خشيتم أَخْذَ القهّار، حتى بلغ أمرنا إلى ما بلغ، وردّ الله عليكم دعواتكم، إنه لا يُحب قومًا مفسدين.

* *يبدو أن "و" سقطت من هنا سهوا، والصحيح: "ولم تزالوا وكنتم مصرين". (الناشر)*

أيها الناس، إني مُحقّ صادق في ادّعائي، فإياكم ومِرائي، وإن كنتم لا تقبلون قولي، ولا تخافون صولي، ولا تُهصَرون إلى الهداية، ولا تنتهون من الغواية، **فَتَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَّعْنَةَ اللهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ**، ونستفتحْ فيما وقع بيننا، ليُقضى الأمر، ويظهر الحق، وينجو عباد الله من قوم كاذبين. وإني أحضر بِرازَ المباهلة، مع كتاب فيه إلهاماتي من حضرة العزّة، فآخذ الكتاب بيد التواضع والانكسار، وأدعو الله ربَّ العزّة والاقتدار، وأقول:

**يا ربّ، إن كنتَ تعلم أن كتابي هذا مملوٌّ من المفتريات، وليس هذا إلهامك وكلامك ومخاطباتك من العنايات، فتَوَفَّني إلى سنة، وعذِّبني بعذاب ما عذّبتَ به أحدًا من الكائنات، وأهلكْني كما تُهلك المفترين الكاذبين بأنواع العقوبات، لينجو الأُمّةُ من فتنتي وليتبيّن ذلّتي على المخلوقات.**

ربِّ، وإن كنتَ تعلم أن هذه الكلمات كلماتك ومن الإلهامات، ولستُ بكاذبٍ عندك بل أنت بعثتَني عند ظهور الفتن والبدعات، فعذِّب الذين كفّروني وكذّبوني ثم حضروا اليوم للمباهلة، ولا تُغادِرْ منهم نفسًا سالمةً **إلى السنة الآتية**، وسلِّطْ على بعضهم **الجُذام**، وعلى البعض **الآلام**، وأنزِلْ على **أبصار** بعضهم **بلاءً**، وسلّط على البعض **صرعًا** و**فالِجًا** و**استسقاءً**، أو **داءً آخر**

وتَوَفَّهم معذَّبين. وابْتَلِ بعضهم **بموت الأبناء والأحفاد والأَخْتان، والأزواج والأحباب والإخوان**، وعليكم أن تقولوا آمين.

فإنْ يبق **أحد منكم** سالمًا إلى سَنة **فأُقِرّ** بأني كاذب وأجيئكم **بعجزٍ وتوبة**، وأحرق كتبي وأشيع هذا الأمر بخلوص نيّة، وأحسب أنكم من الصادقين. وأمّا دعاؤكم فليَدْعُ كل أحدٍ منكم أحكمَ الحاكمين:

**ربَّنا**، إنْ كان هذا الرجل كاذبًا فأَنزِلْ عليه نَكالك، وتَوَفَّه إلى سَنة بعذاب مهين. واجعَلِ الرِّجْسَ عليه ونَجِّ عبادك منه يا أرحم الراحمين. **ربّنا**، وإنْ كان صادقًا ومن الحضرة، فأَنزِلْ علينا رجسًا من السماء إلى السنة، ولا تُغادرْ منّا أحدًا من المباهلين. وعذِّبْنا ومزِّقْنا وأهلِكْنا وأَعدِمْنا، وسلِّطْ علينا آفاتٍ وأمراضٍ كما تُسلِّط على المفسدين. وعلينا عند ختم دعائكم أن نقول: آمين.

ثم عليكم أن تَقدّموا بين يديكم قبلَ المباهلة بالاستخارة المسنونة، وتلتمسوا فضل الله بتضرعاتٍ بهذه الأدعية:

**ربّنا** إن كان هذا هو الحق فلا تجعَلْنا من المحرومين. **ربّنا** وفِّقْنا لنقوم في سبيلك ولا نعصي الحق ولا نكون من الخاسرين. **ربّنا** نخاف أن نُرَدّ إليك بوجوه مُسودّة، فارحَمْنا **ربّنا**، واهدنا من لدنك سُبُلَنا، وافتَحْ علينا، وأَرِنا طريق الصالحين.

فقوموا في أواخر الليالي باكين، واسألوا ربكم متضرّعين، ولا تغلُوا في ظنونكم، ولا تيأسوا من أيام الله، إن أيام الله تأتي كالمفاجئين.

وآخر العلاج خروجكم إلى بِرازِ المباهلة، وعليكم أن لا تكون جماعتكم أقلَّ من **العشرة** الكاملة، أو يزيدون ولو إلى **ألف** في تلك الساهرة، ليفتح الله بيننا وبينكم ويقطع دابر الفَجَرة، ويُتِمّ الحجة على العالمين.

**هذا آخرُ حِيَلٍ أردناه في هذا الباب، فتدبَّرْ وادْعُ اللهَ لِطُرق الصواب، ولا تقعد كالقانطين.**

**ألا يا أيــها الحُــرُّ الكــريمُ تَدبَّرْ يَهْدِك الــمولى الرحيمُ**
**ولا تبخَلْ ولا تقــصُدْ فسادا أُطفئ ما حضا الربُّ العظيمُ**
**وما جئنا الورى في غير وقتٍ وقد هبّتْ لقارِئها النسيــمُ**

مَن رجَع من قوله بعد ما نطق بالخطأ فله أجر عظيم في حضرة الكبرياء، ويُحشَر مع المتقين، وينال جزيل الثواب، وعظيم الأجر في دار المآب، التي لا موت بعد حياتها، ولا انقطاع لنعيمها ولذاتها. فمن قام ابتغاءً لمرضاة الله فله ثواب ذلك في ملكوت السماء، ويُكرَم في حضرة العزة ويُجزى بأحسن الجزاء. فعليكم يا معشر الإخوان، أن تسمعوا قولي لله الديّان، وتجتنبوا سبل الطغيان، وإياكم والكبرَ والمبالاة، واتقوا الله واذكروا المجازاة، واتقوا سير أرباب الدنيا والمحجوبين.

ولا تقرؤوا كتابي هذا واجدين عليّ أو كارهين، وعسى أن تحسبوا أمرا على صورة والحقيقةُ خلاف تلك الصورة، وعسى أن تظنوا أمرا خلافَ حقيقة وهو عين تلك الحقيقة، فإنكم ما تدرون لُبَّ النواميس الإلهية، وتتكلمون مستعجلين غير مفكِّرين. انظروا كيف تهتمّون لأمور دنياكم، وإنْ نزل بلاء عليها فلا تصبرون على بلواكم، وتسعون حق السعي لتدفعوا ما آذاكم، وتنفقون لدفعه أموالكم وأوقاتكم وقواكم، وتتوجهون بكل فكركم ونُهاكم، ولا تقعدون كالصابرين. فلما كانت عنايتكم بهذا القدر إلى أشياء فانية ذاهبة بعد وقت ومُهْلة، فكيف تغفلون من الأمور الباقية الأبدية، التي توصل* فقدانها إلى النيران المحرقة؟ أتؤثرون الفانيات على الباقيات، وتريدون الحياة الدنيا وتنسون خلود الجنات؟

أيها الناس! زكُّوا نفوسكم، واجتنّبوا جذباتكم، وطهِّروا خطراتكم ونيّاتكم، وانظروا إلى الحق متأملين. لا تخدعنَّكم أخبار باردة، وخرافات واهية، ولا ينبغي أن تلتفتوا إليها وتنبذوا كلام الله وراء ظهوركم غافلين.

وقد سمعتم أن موت نبي الله عيسى ثابت بكلام رب العالمين. والأحاديث ساكتة في رفعه الجسماني، وما في يديكم إلا الأماني، وما ثبت فيه أثرٌ من خاتم النبيين. وما نطق فيه رسول الله ﷺ بكلمة، ولا تفوّهَ بلفظة واحدة. وتعلمون أن النـــزول فرعٌ

* سهو، والصحيح: "يوصل". (الناشر)

للصعود◈، فلما لم يثبت الصعود فالنـــزول رجاء باطل، فلا تأخذوا بالقول المردود. وإن تُعرضوا عن نصيحتي، ولم تعملوا على وصيتي، فأخاف عليكم أن تُحسبوا في الذين يغمِطون نعم الله ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل، ويمدّون أعناقهم جاحدين. وما كنتُ بِدْعًا في

◈ **الحاشية:** الرفع الذي جاء في ذكر عيسى عليه السلام في القرآن، فهو ليس رفع جسماني ولذلك قدّم عليه لفظ التوفي في البيان، ليعلم الناس أنه رفع روحاني كما جرت عليه سنة الله بعد موت أهل الإيمان، فإنهم يُرفَعون إلى الله بعد قبض الروح ويدخلون في نعيم الجنان فرحين. والآية نزلت ليُقضَى بين اليهود والمسيحيين، فإن اليهود زعموا أن المسيح كان من الكاذبين وملعونا وما كان من المقربين المرفوعين. وقالوا إنه صُلب، والمصلوب لا يُرفَع إلى الله بحكم التوراة، بل يُلعَن من حضرته ويُجعَل من المردودين. وقال النصارى إنه كان ابن الله، فصُلب لإنجاء الخَلق، ومُنع من الرفع في أول الأمر، ولُعن وعُذّب وأُدخِلَ في جهنم إلى ثلاثة أيام كالفاسقين، ثم رُفع إلى العرش وآواه الله إلى يمينه إلى أبد الآبدين. فاليهود ذهبـــوا إلى تفريـــط وهَمْط وإهباط، والنصارى مع التفريط إلى إفراط، فبيّن الله ما كان أحقَّ وأقومَ في أمر عيسى، فقالَ إنه ما صُلب بل تُوُفِّيَ بحتف أنفه وأُلحِقَ بالموتى، ثم رُفع كالمقرّبين، من غير أن يُلعَن ويُدخَل في اللظى.

**فالحاصل أن هذا قضاء من الله الأعلى، بين اليهود والنصارى، ليبرئ عبده من بهتان اللعن◉ وعدم الرفع ويقضي بما هو أحق وأولى،** فحكَم بينهم فيما اختلفوا فيه، وهو خير الحاكمين.

ولولا هذا الغرض فما كان وجه لذكر هذه القصة، بل لو فُرضت القصة على خلاف هذه الصورة، لكان لغوا كلها ومحل اعتراض على فعل حضرة العزة. ألم تكن أرض الله واسعة فيخفي المسيح في مغارة من المغارات، كما أخفى أفضل الرسل عند التعاقبات؟ ففكِّرْ أيُّ حاجة اشتدت لرفعه إلى السماوات؟ أخشِي الله رُعْبَ اليهود المخذولين، وظن أنهم يُخرجونه من الأرضين؟ ألا تعلم أن الله حكيم لا يفعل فعلا إلا بقدرِ ضرورة ولا يتوجه إلى لغو بغير حكمة داعية؟ فأي حكمة ألجأ الله لرفع المسيح إلى السماء؟ أما وجد موضعا في الأرض للإخفاء؟ ففكِّر كالمبصّرين. منه

==========

◉ الحاشية: لولا هذا الغرض لكان ذكر التطهير لغوًا بعد ذكر الرفع، فإن عدم الرفع الجسماني ليس بعيب واجب الدفع. منه

هذا الأمر وما جئت شيئا إمْرًا، فكيف تؤاخذونني وترهقونني عن أمري عُسْرا؟ أعُمِّيتْ عليكم أقوال الأولين؟ بل هو نبأ عظيم كنتم عنه معرضين. لا تظلموا أنفسكم وأْتوني بصفاء نية، يدرَأ الله عن قلوبكم كل شبهة، وينـــزل عليكم أنوار سكينة.

وتعلمون أن فتن النصارى وغلوَّهم في الخزعبيلات، كانت تقتضي حَكمًا من رب السماوات، فالله الذي نجّى المسيح من **صليب اليهود**، ورفعه إلى المقام الأعلى، أراد أن ينجّيه من **صليب النصارى مرة أخرى**، فأرسلَني حَكَمًا عَدْلاً لهذه الخطّة، وسماني باسمه **لأكسر الصليب وأُتِمَّ ما بقي منه من فرائض النصيحة، فكل ما أفعل كان عليه** لو كان في قيد الحياة، وكذلك قدّر عالم المغيبات. وجئت بعده **على قدرٍ جاء هو مِن بعد موسى**، وإن في ذلك لآية لأولي النهى. ومن آيات الله أنه أخفى في عدد اسمي عددَ زماني، وإن شئتَ ففكِّر في:

## غلام أحمد قاديانى*

فذلك خاتَمُ ربِّ العالمين، وفيه إشارة إلى أنه جعلني لهذه الملة مجدِّد الدين، ولا يقبَل العقل السليم أن يصمت الله الغيور عند هذه الفتن العظيمة، حتى لا يبعث مجدِّدا على رأس هذه المائة. أتطمئن قلوبكم بأن يرى الله هذه البلايا تتنـــزل على الأمة الضعيفة، ثم لا يتوجه إلى دفعها ولا لإزالة هذه الظلمة، ولا يبدو شيء من نصرة

* *لقد ورد في الأصل تحت هذه الكلمات: ١٣٠٠هـــ، ويعني ذلك أن مجموع اســـم حضرته هو ١٣٠٠ طبقا لحساب الجمل، مما يشير إلى زمن بعثته عليه السلام. (الناشر)*

حضرة الكبرياء، ولا تتنـــزل رحمته عند كمال هذا البلاء، وتسبّ ذراري الشيطان أولياءَ الرحمن فرحين مطمئنين؟ ألا تنظرون كيف بلغت غشاوة الجهل منتهاها، وكيف نسيت كل نفسٍ عقباها، إلا التي حفظها الله وحماها؟ ألا تشاهدون كيف زادت الملل الضالة في طغواها، ووقع الفتور في سفينة الحق ومجراها ومرساها؟ ألا يصرخ الوقت لمجدّد الدين؟ ألم يأنِ للذين ظُلموا أن يُنصَروا من رب العالمين؟ أتنتظرون وقت استئصال الإسلام، **وقد وصل إلى شفا حفرةٍ دينُ سيد الأنام؟ ما لكم لا تغتمّون كالمواسين؟**

**أحاط الناسَ مِن طَغوَى ظلامٌ علامات بها عُرِفَ الإمامُ**
**فـــلا تعجَبْ بـــما جئنا بنورٍ بدَتْ عينٌ إذا اشتدّ الأُوامُ**

أيأتي مسيحكم بعد تفطُّر السماء واختلال النظام؟ ما لكم لا تعرفون الأوقات ولا تفكّرون في الأيام؟ ألا ترون أن الآفات نزلت، والآيات ظهرت، والمعاصي كثرت، والفتن تواترت، والمصيبة جلّتْ؟ أليست فيكم نفس مفكّرة، أو تحبّون الدنيا الخاسرة، أو يئستم من رحمة الحضرة الأحدية، أو رجعتم إلى الجاهلية، ورُددتم في الحافرة؟ أتظنون أن الله ما بعث مجدّدًا لإصلاح هذه المَفْسدة، على رأس هذه المائة؟ أو بدّل سننه عند هذه الفتن المهلكة؟ ألم يكن حاجةٌ إلى روح القدس عند كثرة الشياطين؟ فلا تميلوا كل الميل وانظروا كَلِمَ الله متدبرين. ألا ترون نيران الفتن وزمان المحن؟ وتسمعون ثم لا تسمعون، وتُنادَون ثم تصمِتون، كأنكم متُّمْ أو أُغمِيَ عليكم

كالمصروعين. وإذا نطقتم نطقتم كالعادين، وإذا بطشتم بطشتم جبارين، وإذا ناظرتم فناظرتم بآراء أنحَف من المغازل، وأضعف من الجوازل، وأحاطت بكم أخلاط الزمر من ذوي الغمر، فجعلتموهم كأنفسكم من الضالين. أُعطيتم مفاتيح الهداية، فاستبدلتم الغيَّ بالرشد والدراية، وتمايلتم إلى الجهل كالمحبّين.

ومنكم قوم أغرَوا عليّ العامة، وندّدوا بأنه ترَك الكتاب والسنة، ألا لعنة الله على الكاذبين المفترين، الذين يستمرّون على غيّهم، ولا يتناهَون عن زهوهم وبغيهم، وما كانوا منتهين. وما ظلمونا ولكن ظلموا أنفسهم، وسقط المكر على وجوه الماكرين. أشاعوا جهلاهم في الجرائد، وكادوا كالصائد، وجاءوا بزُور مبين. ولما رأيت أنهم أخلَوا كِنانتهم، وقضوا من المفتريات لُبانتهم، أشعتُ ما أشعت كما هو فرض الصادقين، فأعرضوا عن نِضالي، وفرّوا مِن عَسّالي، ووارَوا وجوههم كالكاذبين.

أيها الناس! ارقعوا* على ظَلْعِكم ولا تظلموا، وانتهوا ولا تفرطوا، واحذروا ولا تجترئوا، واذكروا الموت ولا تغفلوا، واذكروا آباءكم الغابرين. أتظنون أنكم تُتركون في الدنيا ولذّاتها، ولا تُقادون إلى الحاقّة ومُجازاتها، ولا تُساقون إلى مالك يوم الدين؟ ما لكم لا تنتهجون مهجة الاهتداء، ولا تعالجون داء الاعتداء، وتمرّون بالحقّ محقرِّين؟

* *يبدو أنه سهو، والصحيح: "ارقأوا". (الناشر)*

اعلموا أن فضل الله معي، وأن روح الله ينطق في نفسي، فلا يعلم سرّي، ودخيلة أمري إلا ربّي، هُوَ الذي نزل علي وجعلني من المنوّرين. وكم من آياتٍ كُشفتْ عليكم ثم تمرّون بها غافلين. ألا ترون أن الخسوف والكسوف ما كانا في قدرتي ولا قدرتكم؟ بل كان جمعُهما في رمضان خلافَ مُنْيتكم، فرأيتم الآيتين المذكورتين كارهين. فكأن الله عذّبكم بما لا تهوى أنفسكم، فما فكرتم كالراشدين. ولو كان في قدرتكم لحوّلْتم الشمس والقمر من مكان خسوفهما ونلتم إلى السماء لتغيير صفوفهما لو كنتم قادرين. فسوّد الله وجوهكم ورَضَّ فُوْهَكم، وما استطعتم أن تردّوا فعل الله فكَنَسْتم نادمين.

أتُقسِمون أنكم رضيتم بهذا الفعل من الرحمن، وما جادلتموه بأنفسكم كالشيطان، وما أخذكم القبض كالغضبان؟ فأَقسِموا إن كنتم صادقين. أتُقسِمون أنكم رضيتم بموت "آتهم" بعد ما أخفى الحق وما أقسَمَ؟ فأَقْسِموا إن كنتم صادقين. أتُقسِمون أنكم رضيتم بما أيّدني ربي، وأكرمني وأعزّني، وزاد كل يوم حزبي؟ فأَقْسِموا إن كنتم صادقين. أتُقْسِمون أنكم رضيتم بما أخزاكم ربي بحذائي، وما استطعتم أن تكتبوا شيئا في العربية كإملائي؟ فأَقْسِموا إن كنتم صادقين. أتُقْسِمون أنكم رضيتم بما قصّرتم عن فهم القرآن، فما استطعتم أن تكتبوا مثل ما كتبتُ من معارف الفرقان، وما قدرتم أن تبارزوني في هذا الميدان؟ فأَقْسِموا إن كنتم صادقين.

وقد شهد صالح على صدقي من قبلي وقبل دعوتي، وقال إنه هو

عيسى المسيح الآتي، وسمّاني وسمّى قريتي، وقال لفتاه: هذا ما أُنْبئتُ مِن ربي، فخُذْ مني هذه وصيتي، وقال: إن العلماء يكفّرونه ويكذّبونه، فلا تقعد معهم وتَذكَّرْ نصيحتي. فلما كبر فتاه وشاخ أدركَ وقتي، فجاءني في وقت غُربتي، وقال: عندي لك شهادة فاسمع مني كلمتي، فروى ما سمع من شيخه بعين باكية، ودموع متحدرة، حتى هيّج عبرتي، ثم أشاع كما أوصاه شيخه الولي هذا الخبر، وبلّغ حالفًا ومهلِّلاً إلى كل أُذنٍ هذا الأثرَ، وأشعتُ بإيمائه رسالة مطبوعة، وأودعتُها أخبارا مسموعةً، وزاحمَه علماء تلك الخِطّة، وكادوا كل كيد ليصرفوه عن هذه الشهادة، فقال: لا أكتمها أبدا ولا أتعامى بعد البصيرة، فأشاعها حق الإشاعة، وبلّغها إلى الخواص والعامة، ثم توفاه الله ورفعه إلى مَقرّ المؤمنين.

فبَيِّنُوا.. أتُقسِمون أنكم رضيتم بهذه الآية من الرحمن، وما كرهتم وما غاضبتم في قلوبكم بالعدوان؟ فأَقْسِموا إن كنتم صادقين. أهذه كانت تُقاتكم ودياناتكم أن شيخا كبيرا من المسلمين روى هذه الرواية مُقسِمًا بالله ومهلّلاً فولّيتم معرضين؟ مع أن أشهادًا عَدْلاً مِن قومه شهدوا على أنه من الصالحين الصادقين المصلّين الصائمين الزاهدين. وكذلك نبّهكم الله كل مرة، فما تنبّهتم كالمسترشدين.

أتُقسِمون أنكم رضيتم بما لم يسمع الله دعواتكم، وحفظني وعصمني وكرمني وأرغمَ أنفكم لسوء نيّاتكم؟ فأَقْسِموا إن كنتم صادقين. فإن كنتم تظنون أنكم على الحق ونحن على الباطل، فلمَ

يعذّبكم الله بما لا ترضون به من الدلائل، وتتربصون علينا الذلة فتؤخذون فيها منخوسين. بل الله يكسِر جُبّتَكم في كل آن، ويُعلي عبده ببرهان، ويمزّق أجياد المستكبرين. فما لكم لا تُرفِئون بالاستغفار، ولا تدركون وقت الاعتذار، ولا تتوبون خائفين؟ وإني بزعمكم أخادع الناس وأُضِلّ الورى، وأفتري على الله وأترك سبل التقوى، وفي نفسي معها رزائل أخرى، وأنتم قوم مطهرون لا عيب فيكم ولا طغوى، ثم مع ذلك يخزيكم الله ويعذبكم بعذاب أَدْفَى، فلا تقدرون على أن تردّوا عذابه ولا تأتونني معارضين. وإن الله قد أنزل عليّ غيثَ نعماء مِدْرارا ظاهرةً وباطنة، وأنعم عليّ في الأولى والآخرة، وفتح عليّ أبوابا من الإلهامات، وحدائق من المكاشفات، فمن يمكث عندي نحو أربعين يوما فأرجو أنه يرى شيئا منها، فهل لكم أن تعارضوا أو تُعرِضون عنها؟

وإن الله بشرني وقال: "يا أحمدُ أجيب كلَّ دعائك، إلا في شركائك"[٥]، فأجاب دعواتٍ ضاق المقام عن الإتيان بذكر إجمالها، فضلاً عن إدراج تفاصيلها وكيفية كمالها، فهل لكم أن تعارضوني فيها أو تنقلبون معرضين؟

وإن الله بشّرني في أبنائي بشارة بعد بشارة حتى بلّغ عددَهم إلى ثلاثة، وأنبأني بهم قبل وجودهم بالإلهام، فأشعتُ هذه الأنباء قبل ظهورها في الخواص والعوام، وأنتم تتلون تلك الاشتهارات، ثم

---

[٥] **الحاشية**: لهذه الفقرة قصة لا يقتضي المقام ذكرَها. منه

تمرّون بها غافلين من التعصبات، **وبشّرني ربي برابعٍ رحمةً، وقال إنه يجعل الثلاثة أربعة، فهل لكم أن تقوموا مزاحمة، وتمنعوا من الإرباع المُرْبِعين؟** فكيدوا كيدا إن كنتم صادقين. وقد كتبنا ذلك في اشتهار من قبل من سنين، فاقرأوه متأملين، إن في ذلك لآيات للناظرين. ثم كُرّر عليّ صورة هذه الواقعة، فبينما أنا كنت بين النوم واليقظة، **فتحرَّكَ في صلبي روحُ الرابع** بعالم المكاشفة، فنادى إخوانَه وقال: **بيني وبينكم ميعاد يوم من الحضرة.** فأظن أنه أشار إلى السنة الكاملة، أو أمدٍ آخر من رب العالمين.

واعلموا أن الله ينصرني في كل موطن، ويخزيكم من كل محتضن، ويردّ كيدكم عليكم يا معشر الكائدين. وإن كنتم تزدريني عينُكم فتعالوا نجعل الله حَكَمًا بيننا وبينكم. أتريدون أن يظهر مَينُنا أو مينُكم؟ فتعالوا نَقُمْ تحت مجاري الأقدار مباهلين، وإن كنتم تُعرضون عن المباهلة، فأْتوني وامكثوا عندي إلى السنة الكاملة، لأريكم بعض آيات حضرة العزة إن كنتم طالبين. وإن كنتم تُعرضون عن رؤية هذه الآيات، فلكم أن تعارضوني في معارف القرآن والنكات، ولن تقدروا عليها ولو متّم حاسرين. فإنه علم لا يمسّه إلا الذي كان من المطهَّرين. فإن لم تفعلوا هذا فعارِضوني في إنشاء لسان العرب، فإن العربية لسان إلهامية، لا يُكمَّل فيها إلا نبي أو ولي من النُخب. وإن لم تبارزوا فيها، ولن تبارزوا، فاكتبوا كتابا وأكتبُ كتابا لإصلاح مفاسد هذه الأيام، ورَدِّ النصارى وفِرقٍ أخرى من عَبَدةِ الأصنام،

وإفحامِهم بالبرهان التام، وعلينا أن لا نقول شيئا من عند أنفسنا ولا أنتم من عند أنفسكم، إلا من كتاب الله العزيز العلام. ولن تفعلوا ذلك أبدا ولن تُعطَوا عزّةَ هذا المقام، فإن هذا فعلٌ من أفعال إمام الوقت ومُزيلِ الظلام، الذي أُيِّدَ بروح من الله وزِيْدَ بسطةً في العلم وأُعطيَ بلاغة الكلام. وإن تغلبوا في أحد منها فلستُ من الله العلام. فإن أعرضتم عن كل ما عرضنا عليكم، فما بقي عذر لديكم، وشهدتم أنكم من الكاذبين. أتكذبونني من غير علم، ثم إذا دعوناكم ففررتم جاحدين غير مبالين؟

وذكرنا هذه الآيات تلذُّذًا بالنعم الرحمانية، وشكرًا للتفضلات الربانية، ثم إتمامًا للحجة على الطبائع الشيطانية، واستزادةً لنعم رب العالمين، إذ بالشكر تدوم النعم وتزيد الآلاء وتثبُت عطايا أرحم الراحمين.

فالحاصل أنني قد عرضت هذه الأمور دعوةً للطلباء، ورحمًا على الأتقياء الضعفاء. فمن كان في شك من أمري، وكان مُكفِّرَ زُمَري، فعليه أن يسعى إلي بقدم الرضاء، ويختار طريقا من هذه الطرق للاهتداء، لا للمِراء وطلب العلاء، ولا يرضى بغشاوة الجهل والخطاء، ويأتيني كالمتواضعين. فأرجو أن يرحمه الله ويجعله من المطمئنين. بيد أني ما أُمِرتُ أن أدعو الذين ينحتون الآيات من عند أنفسهم ومن أماني الجَنان، ثم يقولون أَرِنا هذه لو كنتَ من الرحمن، وإن لم تأت بها فلسنا بمؤمنين. أولئك الذين يحبون آراءهم، ويريدون أن يأمروا الله ليتبع أهواءهم، فيُترَكون في الضلالة خالدين. وإن الله

لن يرفع حجبهم ولن يزكيهم، إنهم كانوا مستكبرين. إلا الذين تابوا وأصلحوا فأولئك من المرحومين. وما كان الله محكومَ أحد في البلاد، وهو القاهر فوق عباده لا كالغلمان والعباد، سبحان ربي! هل كنتُ إلا بشرًا من المأمورين.

ثم القوم احتجوا علي بأمور نذكرها برعاية الاختصار، لنستأصل كل ما أوردوا على سبيل الاعتذار، ولنكشف باب الحق على الطالبين. فمنها أنهم يقولون إن "آتم" ما مات في الميعاد، بل مات بعده وما ثبت إيمانه بالأشهاد، ولم يثبت أنه كان من الخائفين الراجعين.

فاعلم أن نبأ موته كان مشروطا بعدم الرجوع إلى الحق والصواب، وما كان كحُكْمٍ قطعي كما فهِم بعض الدوابّ. ثم كان من المشروط في حياته أن يثْبُت على الحق بعد القبول، وإن لم يثبت فكان حُكْم الموت لذلك الجهول، فتمّتْ كلمة ربنا صدقا وحقا ولو أنكرها بعض الجاهلين.

وقد سمعتَ أنه مات بعد الإخفاء وعدم الإظهار، وإغضاب الرب بالإصرار على الإنكار، وكذلك كان إلهام رب العالمين. أفلا ترون موت هذا الجاهل الكَفّار، كيف فاجأه بعد الإصرار على الإنكار؟ وقد كُتِبَ قبل موته ذلك كلُّه في إلهام الله القهّار، وصُرِّحَ أنه سيؤخذ ويُمات بعد إخفاء الشهادة والغلوّ والاستكبار، ثم طُبع وأُرسلَ في البلاد والديار. وما مات "آتم" إلا بين سبعة أشهر من الاشتهار الأخير، وكان ذلك الاشتهار نبأ موته وكالنذير. أفلا

يتدبرون إلهاماتي، ولا يفكرون في كلماتي، ويمرّون ضاحكين على آياتي، رضوا بهذه الدنيا ونسوا يوم الدين، فكيف أداوي خَتْمَ قلوبهم وأقفال رب العالمين؟

فالحاصل أن "آتم" خشِي في الميعاد نبأَ الرحمن، ورجع إلى الحق بخوف الجَنان، لأنه ظن أن رِحْلته قربت ودنت، وخيامه طُوِيتْ، وأوتادها قُلِعتْ، فخشِي على نفسه كالمأخوذين. فكان حقه أن يُمهَل إلى زمان الاجتراء، وتُرك* إلى ساعة المراء والإباء، فمهّله الله إلى وقت رجَع إلى كفره وطغى، ثم أماته تعذيبا في الدنيا والأخرى، وكذلك مضت سنّته في الأولين.

وأما خوف "آتم" من الله القهار، فلا يخفى عليك عند التعمق في الأخبار. ألا ترى أنه بعد ما سمع مني نبأ العذاب كيف ألقى نفسه في أنواع الاضطراب، وانقطع من الأحزاب والأتراب، واختار كمجنونين شدائدَ الاغتراب، وأَنْأَتْه الدهشةُ عن الأهل والأحباب، حتى طارت حواسّه من الهيبة، وأصابت عقلَه صَابةٌ من كمال الخشية، وطفِق يجشَأ من بلد إلى بلد كالمجنون، ويجوب كل طريق كالذي يطوّحه طوائح المنون. ورآه أناس كثير في زمن السياحة، وهو يبكي أو له رنّة النياحة، وشهدوا أنه كان باديَ الغمّة كثير الكربة، كالذي يموت من الغُلّة، أو كالمجرمين المأخوذين.

فلا شك أنه خشِي وتنـــزَّلَ إلى الخوف من طغيانه، ولا ريب أن

* سهو، والصحيح: "ويُترَك". (الناشر)

زواجرَ نَبَئِنا نجَعتْ في جَنانه، وقرَعت كلماتي صِماخَ آذانه، فخاف بها قَهْرَ حضرة الكبرياء، وانتهج على قدرِ مهجّةَ الاهتداء، على طريق الإخفاء. ثم قسا قلبه بعد الأمن من الفَناء، وإن الله لا يعذب خائفين في هذه الدنيا حتى يغيّروا سير الخائفين. وإنه أقرّ بخوفه عند أحبابه، وأخبرهم عما جرى عليه في أيام اضطرابه، وكل أمر أخفاه من جمعه، أبداه سيل دمعه، وكل ما ستر من المَين، أبدَتْه دموع العين. ومَن دلَف إليه كالمفتّشين، وجَده كالمجانين، وخابطا كالمصابين، ورأى أنه يمضي الأيام كيوم حامِي الوَديقة، ويصيح كضالّ من الطريقة، ويُزجي الأوقات بهموم وأفكار، كأن التلف استشفّه بآثار. ومَن انتهى من أحبابه إلى فِنائه، وتصدّى لاستنشاء أنبائه، وجَده كمختلّ الحواسّ، بادي الإيجاس، وما رآه في فرح، بل في غمّ وترح. ثم إذا انسلخت أشهر الميعاد، وظن أنه نجا، أخفى سرَّ خوفه وما أبدى، ولكنه ما استطاع أن يخفي قرائن إيجاسه، فنحَت تأويلاتٍ بتعليم خنّاسه، وقال لا شك أني أنفدتُ أيام الميعاد بالخوف والارتعاد، ولكني ما خفت نبأَ الإلهام، بل خفت أعداء صالوا عليّ كالضرغام، فإنهم أغرَوا عليَّ في مقامي الأول حيّةً مُعلَّمةً من أنواع الحيل ورأيتها كالصائلين. ففررتُ على خوف منها إلى البلدة الثانية، لَعَلِّي أُعصَم من هذه الزبانية، ولكن ما تُركتُ فيه كالمؤمَنين، بل صال عليّ بعض رجال مسلّحين. ثم فررت إلى الخَتَن الثاني، فصال العدا كما صالوا قبل إتياني. وإنهم كانوا ملائكة سفّاكين، فرأيتهم في كل مقام تبوّأتُه، وفي كل بلد وطّأته، ورأيتهم مخوّفين، وكانوا

يتبوّءون الرماح نحوي كالقاتلين. فلأجل ذلك فررت من بلدة إلى بلدة لما خوّفوني بقناة وصَعْدة، ورمحٍ ومَشْرَفيّة وفحيحِ تِنِّينٍ، وأرادوا أن يَسُمُّوني فاجئين. ولما جشَأ جَناني كالمخنوق، وهاجت الهموم كالسَّهوق، رأيت أن أُلقي بآخر المقام جِراني، وأتخذ أهلَ خَتَني جيراني، وأُلقي عصا التَّسْيار كالقاطنين.

هذه ظنون أظهرها بعد انقضاء الميعاد، وما تفوّهَ بلفظة من مثلها في الميعاد عند الأشهاد، وما أشاع ظنونه في الجرائد، وما أطلعَ عليه أحدا من العوام والعمائد، بل ما رافَعَ إلى الحكّام، وما أخبر حاكما عن هذه الآلام، وأمضى الوقت كالصائمين. ثم أقرّ معها برؤية ملائكة العذاب، والخوف والاضطراب، وأقرّ أنه أنفد الأيام خافًا، وخشِي موتًا زُعافًا، وظن أنه من الدارسين. فانظروا إلى حيّةٍ يذكرها.. أتقبَلها فراسةٌ أو تنكرها؟ فافهموا السرّ إن كنتم متدبرين.

ثم تعلمون أنه هرب من مكان إلى مكان، ومن جيران إلى جيران، ولفظتْه بلدة إلى بلدان، ولكن مع ذلك ما أظهر في الميعاد عذرا نَحَت بعده كشيطان، وما بكى عند حكّام ولا أعوان، ولا رجال ولا نسوان ولا بنين. أيقبل عقل في مثل هذه الخصومات وزوبعة التعصبات والنقمات، **أن يصبر الرجل الذي هو عدوُّ ديننا وحاسدُ عِرضنا** عند هذه السطوات، ولا يأخذنا ولا يرفع إلى القُضاة؟ بل كان عليه أن يُفشِي جريمتنا، ويُثبِت صريمتنا، وأذاقنا جزاء السيئات. أما رأيت أن "آتم" وقومه كيف فرحوا بعد الميعاد باطلا، ورقص كل أحد خاتلا، ورمى من قوس الخبث عاتلا،

فكيف أعرضوا عن مثل ذلك الفتح المبين؟ أهذا أمر يقبله عقل الثقات، أو يطمئن به قلب العاقلين والعاقلات؟ أهذا هو المرجوّ من هؤلاء الدجّالين أعداء الدين وأعداءِ خيرِ الكائنات؟ ففكِّروا إن كنتم مؤمنين.

ألا ترون أن رسائلهم وجرائدهم مملوّة من إهانة دين الإسلام، وخير الأنام، فكيف غضّوا أبصارهم في مثل هذا المقام؟ ووالله إنهم عدو لي وعدو لسيدي المصطفى، وحِراصٌ عليّ لو يقدرون على نوع من الأذى ولو كسَرْنا بيضةً من بيضهم، لحثّوا الحكام علينا بتحريضهم، **فكيف صبروا** على ما رأوا منا سطواتٍ للإهلاك، وحركات كالسفّاك؟ أَدَرَءُوا بالحسنة، وما أرادوا جزاء السيئة بالسيئة؟ رأوا صولةً أولى منا فعفوا وصبروا، ثم رأوا صولة ثانية فعفوا وصبروا، ثم رأوا ثالثة فعفوا وصبروا، وكذلك عملوا إلى سطوات ثلاث! فأَقْسِموا أهذه أخلاق تلك الشياطين؟

**أتُفتي فراستكم** أن هؤلاء الأشرار الكفّار، والأعداء الفجّار، الذين **سبقوا كل قوم** في عداوة الملة الإسلامية، والشريعة الربانية، **وجدونا** مجرمين سفاكين، **ثم آلَونا** خَبالاً عافين؟ بل هو مكرٌ وحيلة لإخفاء الخوف الذي ظهر من "آتم" بأنواع الارتعاد، في أيام الميعاد، ولذلك ما تألّى وما رفع الأمر إلى حكام هذه البلاد، وولّى ومكر وقال نحن قوم نجتنب الألايا، وقد حلَف من قبل في القضايا. والحلف واجب عندهم لرفع الخصومة، ومَن أبى فهو عندهم من

الفَجَرة، وقد حلَف يسوعُهم والآخرون من الحواريين وأئمة النصرانية. وقال "**كلارك**" أن القَسم عندنا كالخنْزير عند المسلمين! **وقد أكل خنْزيرَ الحلفِ كلّ أحد** من القسيسين، **وبولص** الذي كان رئيس المفترين. فانظروا إلى "آتم" وكذبِه الصريح، وعملِه القبيح، كيف أعرض عن الإقسام، خوفا من قهر الله العلام؟ وكنت أعطيه مالا كثيرا على إيلائه، وقلتُ خُذْ مني قبل حلفك لو كنت تشكّ في قضائه. بل زدتُ وعد الصلة من ألف إلى آلاف، ولو استزاد لزدناه من غير إخلاف. فكان فرضه أن يجيئني جارًّا ذيلَ الطرب، ويحلف ويُشيع صدقه في العجم والعرب، ولكنه فرّ كالمبهوت، وخرّ كالمكبوت، وأَعْقبَه طائفُ الهول كالمجانين. فظهر من هذا ضَحْضاحُه، وهتَك وجاحَه، وحصحصَ الحقُّ وبدا كذب الخائنين.

ثم كان عليه عند الإعراض عن الحلف أن يأتي بدلائل على بهتانه، ويُثبِت بأشهادٍ مضمونَ هذيانه، ولكنه ما جاء بدليل على تلك الخرافات، وما صرخ على بابِ حاكم عند هذه الآفات، كما هو سيرة المظلومين. فأي دليل أكبر من هذا على مفترياته، وعلى كذبه وخزعبيلاته عند الناظرين؟ وإنه أقرّ غير مرة أنه خشِي على نفسه في تلك الأيام، ووجد ما يجد الموقِن بقرب الحِمام.

وبعد ما خرج من سجن الأحزان، ومارِسْتان الذوبان، أهرَعَ الناس لِلُقَاه، وعجبوا بِمُحَيّاه، فمن حدق إلى أساريره، وفكر في شخيره، علم أنه بدّل الهيئة السابقة، وأطفأ النار المضطرمة، وظهر

كالمساكين. وبكى مرارا في كل ناد رحيب، بتذلل عجيب، فسمع من كان في بُهْرة الحلقة وحواليها، وفهِم أنه خشِي قنا الموت وعواليها، وأمضى الأيام كالمضطرين. وأما قومه فنسوا ما كان في إلهامي من قيد الاشتراط، الذي كان فيه كالمناط، وما فكروا في خوفه الذي بلغ إلى الإفراط، وتعامَوا من الغيظ والاحتلاط، وأرَوا كلَّ خبثهم كالشياطين، وأبدوا نواجذَ طيشٍ وغضب، وغيظ ولهب، وكانوا معتدين.

وأَخْنَتْ عليّ السفهاءُ ورفقاؤه الجهلاء، وقالوا إنا من الغالبين. وفهّمناهم فما أقلعوا عن الجهلات، وانصلتوا كل الانصلات، وأضرموا نار الوغى، والتهبوا كجَمْر الغَضى، وما أَنْقَروا وما فكروا، بل اضطرموا وتنكّروا، وأبرزوا عربدةً واعتداء، وافترَوا أشياء، وتمايلوا على سبٍّ واستجراح، وشتمٍ ومزاحٍ، واعتدَوا هذيانا وبهتانا، وطاروا إلينا زُرافاتٍ ووُحْدانا كالمجانين. وأخفَوا الحقيقة كالحُوَّل المحتال، أو المغطّي الدجّال، وكانوا يستهزئون سائرين في الأسواق، كما هي عادة الفسّاق، وكانوا يزيّنون الكذب والافتراء، وكل أحد قال فينا أشياء كما شاء، وقد استتلَوا الصبيانَ والسفهاء مستهزئين. وكانوا يخدعون الناس بنبأٍ ما فهِموه، أو فهِموه ثم حرّفوه، وعثَوا في الأمصار مفسدين. وسعى معهم علماؤنا كساعٍ، بل كسِباعٍ، لابِسِي جلدِ النمر، وهاجِمِي هجومِ السيل المنهمِر، واتبعوا النصارى وزخارفَ زورهم، ونبذوا لباس التقوى وراء ظهورهم، مجترئين. وأرادوا جَوْحَنا بحصائد اللسان وغوائل الافتنان، وأيّدوا النصارى

كالشاهدين. وكان كلٌّ **كحسين بطالوي أو شيخ نجدي** بعيدا من الديانة والدين.

والعجب أن "آتم" كان مُرِمًّا لا يترَمْرَمُ، وصامتا لا يتكلّمُ، بل كتب إلي أني برئ منهم ومِن فعلهم، وأعلم أنهم من الجاهلين المعتدين، ثم بعد مَلِيٍّ قسَا قلبه وصار من الغاوين. ومع ذلك ما أشركَ نفسه في سبّهم وبهتانهم، وسفاهتهم وهذيانهم، وتنحّى عنهم وقعد كالمعتزلين المختفين. ولو كان يحسبني كذّابًا، ويحسب نفسه مظلوما مصابا، لكان حقّه أن يكون أوّل المكذّبين وأوّل اللاعنين، بل كان الواجب عليه أن يشيع كذبي بالاشتهارات، ثم لا يقنَع بها ويرفع إلى الحكام للمكافاة، لكنّه ما فعل ذلك بل صمت كالمتخوفين. وأنت تعلم أنه إن كان مُطّلعًا على كذبي، وكان ظهر عليه خبثُ قلبي، مع أنه تأذّى كلَّ الأذى بسببي، فكان من مقتضى الفطرة الإنسانيّة، والضرورة الدينيّة والعقليّة، أن تتحرك* غضبه كالطوفان، ويشتعل لمجازاة العدوان. فما منعه أنه صار كالميت المدفون، واختفى كالمتندم المحزون؟ أليس هذا مقام يحار فيه الفهم، وتهيج الظنون ويفرُط الوهم؟ ثم دعوتُه للحلف لكشف الحق على العوام، ووعدتُه قنطارا على الإقسام، لا يسيرا من الحُطام، ليرجع برُدْنٍ ملآن وقلبٍ جَذْلان، فولّى وما تألّى. ثم لعنتُه لعنًا كبيرًا، فقلتَ لعنةُ الله عليك إن أعرضت مَزيرًا، وما جئتني وما تركت

* سهو، والصحيح: "يتحرك". (الناشر)

تزويرا، فما جاء وما حلَف، وتذكر رُزْءًا سلَف، وظن أنه الآن من المأخوذين.

وكفاك ما ظهر منه عند سماع نبأ الموت، وتراءت له آثار الفوت، وأخذه خافٌ حتى ظهر التغير في الصوت، وطفق يفرّ كصيد مذعور يجوب البيداء، ولا يرى شجراءَ ولا مرداء، وترَك سبل العاقلين. ثم إذا رأى أن الخوف لا يخفى، وأن ليس الناظرون كالأعمى، فاشتهر أن الصائلين في كل مكان قفَوه، وما وجدوا قصرا إلا علَوه، حتى بُهِتَ مِن نمط تعاقُبهم، وما رأى راجلَهم ولا راكبَهم. فما أمهلَه هذا الخوف، بل احترق منه الجوف، ورآه الزائرون أنه يُمضي وقته بالبكاء والزفرات، ويجري مِن مُقْلته سيلُ العبرات، ولا كدمعِ المِقْلات، وكان يستيقن أنه المغلوب، وسيَعْلَق به الشَّعوبُ. فكما أن القنص عند حسِّ جوارح باطشة يختفي في سرحةٍ كثيفة الأغصان وَريقة الأفنان، ويواري عِيانَه تحت كل عِيصةٍ، بإرعاد فريصة، كذلك تاهَ كالمجانين.

ثم نَحَت مِن بعد الميعاد، على طريق الإفناد، أن جَمْعَنا حلّوا بساحته، وعجَروا عليه شاهرِي سيوفِهم لإبادته، ليغتالوه كالمفاجئين. فمن مثل هذه الافتراءات ونحت البهتانات، ظهَر عُجَرُه وبُجَرُه، وعُرِفَ نجمُه وشجره، وظهر أنه هاب الإسلامَ، ولو أخفى المرام. ألا تعلم أنه كيف أقرّ بأنه خاف حَيّةً، ومن المعلوم أن الحيّة ما كان مأمورة منا ولا معلَّمةً، وتلدغ الحيّة بأمر الله لا بأمر الإنسان، فثبت أنه خشِي قهر الديّان، وأوجس في نفسه خِيفةَ نبأِ الرحمن،

وهذا هو شرط الرجوع الذي كان في إلهام المنّان، فانتفع من الشرط بخوف الجَنان، ثم ستر الأمر كالماكرين.

وإن قصة الحيّة تشهد بكمال الصفاء، أن الخوف كله كان من قدر السماء، لا من هؤلاء وهؤلاء. وقد سمعتَ أني دعوته للإيلاء، فكان هو الخوف الذي رجَعه إلى الإباء. وقلت إني مجيزك كالغرماء، ولو شئت اجمَعْ عني قبلَه عند أحد من الأمناء، فخاف عُكّازتي، مع أنه اطّلع على إجازتي، وإذا ولّى وما تألّى. فقلتُ: يا هذا قد آلَوا مِن قبل خواصُّ أئمّتك، وأكابر ملّتك، أأنت أفضل منهم أو تحسبهم من الفاسقين؟ فما رد قولي وما آلى كالصادقين.

فكِذْبُه شيء لا يختفي بإخفاء، ولا يستقيم بافتراء، بل هو أجلى البديهيات، وأسنى المسلَّمات، ولكن المخالفين قوم أعماهم إعصار التعصب والشحناء، كما يُعشي الهجير عينَ الحرباء. فلا شك أن الحق أبلَجَ، والباطل لَجْلَجَ، واسودّت وجوه المبطلين. ولا ريب أن موت هذا الكذّاب، أمات كلَّ مكذّب في هذا الباب. **وإني أرى أن الألسنة قد زُمّتْ، والحجّة قد تــمّتْ، وظهر الحق ولو كانوا كارهين.**

وقد ذكرنا قبل موت "آتم" في الاشتهارات السابقة، أنه يموت بعد الإنكار من الرجوع والإنابة، والإصرار على الكذب والفرية، فنُوالي شكر الله المنان، أنه فعَل كما كتب قبل هذا الزمان، وأتمّ كما كنت ألهَجُ بشوق الجنان، ومات "آتم" بعد مرور نصف من الأشهر المسيحية، وما نفعه فراره من البلدة إلى البلدة، وإن شئت فافهَمْ

زمان وفاته من هذه الفقرة:

**"هوَى دجّالٌ بَبٌّ في عذاب الهاوية المهلكة"**

**١٨٩٦ السنة العيسوية**

وهذه آية من آيات حضرة العزة، فإنه ما تركه حيًّا إذا ترك سبل الديانة، بل أخفاه تحت التربة، إذا ما أخفى سر الحقيقة. فحصحص الحق وزهق الباطل وبطلت دقارير الكَفَرة، فأَنَّى تُسحَرون يا أهل البخل والعصبية؟ ألم يأنِ لكم أن تتوبوا يا متخلفي القافلة، فقوموا وأَمهِلوا بعض هذا التدلل والنخوة، ولا تبارزوا الله مجترئين.

أيها الأناس! إن "آتم" ماتَ، وبازي الحق على الباطل خاتَ، فَارْقُوا على ظَلْعِكم واذكروا الأموات، وتوبوا مسترجعين. وإن التقوى ليس في لِمَّةٍ مَشيطة، ولُحًى طويلة، وكِعابٍ مكشوفة، وعمائم ملفوفة، وشوارب مقطوعة، ورسوم مجموعة، إنما التقوى في اختيار الصواب بعد الخطأ، والرجوع إلى الحق بعد الإدراء، والالتياع بذكر أيام الإباء، والتناهي عن القوم المفسدين، وترك بخل النفس وكبرها لله رب العالمين. وإن الأتقياء يُسَرّون بقبول الحق كسرورهم بلقاء إلفٍ لقِي بعد الفقدان، أو حصولِ مرام تأتّى بعد الحرمان، وإذا ذكروا فيتذكرون متواضعين. فأحسِنوا النظر في الأعمال، أتجدون تقواكم كمثل هذه الأمثال؟ ما لكم لا تتناهون عن الفساد، ولا تهولكم تهاويلُ المعاد؟ أصاب بستانكم جائحةٌ، فكيف ألْهَتْكم غفلةٌ يا معشر النائمين؟ إن في موت "آتم" لآيات لأولي الأبصار. أما قرأتم من قبل اشتهاري في هذه الأخبار؟ فالآن لا ينكرها إلا حزب الشياطين.

تَذكَّــرْ موتَ دجّــالٍ رُزالِ وقودِ النار "آتم" ذي الخَبالِ
أتاه المــوت بعد كمالِ دَجْلٍ وإنــكارٍ ومكــرٍ في المقــالِ
أراه الله هــــاويــــةً وذُلاً وفي النــيران ألــقى كالدَّمالِ
كمثــلي كان في عمرٍ وسنٍّ سمــينَ الجسم أبعدَ من هُزالِ
ومــا أرداه إلا حبُّ كــفرٍ وأحــبابٍ وأمــلاكٍ ومــالِ
فَــرَى أرضًا بخوف بعد أرضٍ فــما نفعــتْه حيلُ الانْتــقالِ
ودُقّتْ هامــةُ الكــذّاب حقًّا بأطــراف الزجاج أو العَوالي
وقد هــابَ المــنايا ثم أنسى زمانَ الموت من زَهْوِ الضلالِ
ففكِّــرْ كيف أدركَه المَنــيّةْ مُقــدَّرةً لــه بعــد الخَبــالِ
توفّاه المهــيمنُ عند خُبْــثٍ وإصــرارٍ على سبــل الوبالِ
فأين اليوم "آتم" يا عــدوّي ألم يرحَــلْ إلى دار النَّــكالِ
ألــم يثبُتْ بفضل الله صدقي ألم يظــهَرْ جــزاءُ الافْــتعالِ
وما نجّــاه عيسى والصليبُ ولم يَعــصمْه أحــدٌ من عيالِ
تجــلّتْ آيةُ الربّ العظيــمِ فأينَ الطَّاعــنون من الــدَّلالِ
وأينَ اللاعــنون بصــدرِ نادٍ وأين الضاحكون من الحــوالي
وأين الساخــرون من الأداني ومن أهل المطــابع كالــرِّئالِ
فؤادي قد تأذّى من أذاهــم وقلــبي دُقَّ من قيــلٍ وقالِ
أطالوا أَلْسُنَ التــذميمِ ظلمًا فأُمْــرِرْنا كإمــرارِ الحبــالِ
وقــالوا كاذب يؤذي الأناسا ويعلَــم مَن يراني سِــرَّ حالي
وملأوا كلَّ قــرطاس بذمّــي فأصبــحنا كمجروحِ القِتالِ

وما خـــافوا عقـــابَ اللهِ ربّي إذا ما جـــاوزوا سُبْلَ اعْتدالِ
فسَلْهم أين "آتم" في النصارى أَرُوني في الجـــموع أو العيالِ
أما مات الذي زعَـــموه حيًّا أما دُفِنَ المكـــذِّبُ في الدِّحالِ
أما شاهتْ وجوهُ المنـــكرينا فقُـــوموا واشهَـــدوا لله لا لي
ولم يقتُلْه من أمري ثُـــبُـــونٌ ولكن جَـــذَّه حبٌّ قَـــلا لي
بدَتْ آياتُ ربّي مثلَ شمـــسٍ فمـــا بَقيَ الظلام ولا الليـــالي
سهام الموت ما طاشتْ بمـــكرٍ وإن اللهَ يُخـــزي كلَّ غـــالي
تَـــوَفّـــى كاذبًا ربٌّ غيـــورٌ وما آواه أحـــدٌ مـــن مَـــوالي
تُوُفِّيَ والسيـــوف مُســـلَّلاتٌ على أمـــثاله من ذي الجـــلالِ
تجـــلَّى صدقُنا والصدق يجلو فأشـــرَقْنا كإشـــراق اللآلي
فلا تعجَـــلْ علينا يَا ابْنَ ضغْنٍ وخَفْ سُوءَ العـــواقب والمآلِ
نزَلْنا مَنـــزلَ الأضياف منكم فنرجو أن تقـــولوا لي نـــزالِ
ولي في حضـــرة المولى مقـــامٌ وشـــأنٌ قد تباعـــدَ من خيالِ
وصافـــاني ووافـــاني حبيـــبي وأَرْواني بكاســـات الوصـــالِ
أراني الحُبُّ مـــوتي بعد موتي وأَنْـــأَى تُرْبـــتي فبـــدا زُلالي
وجَـــدْنا ما وجَدْنا بعد وَجْدٍ وإقـــبالي أتى بعـــد الـــزوالِ
إذا أنكرتُ من نفسي بصدقٍ فوافـــاني حبيبـــي رَوحُ بـــالي
أطعتُ النور حتى صرتُ نورًا ولا يدري خصـــيمٌ سرَّ حـــالي
طلَـــعتُ اليوم من ربٍّ رحيمٍ وجلّتْ شمسُ بعـــثي في الكمالِ
فلا تقـــنُطْ مـــن الله الرءوفِ وقُـــمْ وبتـــوبةٍ نحـــوي تعالِ

**قرَينا مِن كمال النصح فَاقْبَلْ قِــرانا بالتهــلّل كالرجــالِ**
**وخيرُ الزاد تقــوى القلب لله فَخُــذْ إيــاه قبــل الارْتحــالِ**
**وفــكِّرْ في كلامي ثم فــكِّر ولا تســلُكْ كمــرءٍ لا يبالي**

ثم العلماء أوسعوني سبًّا، وأوجعوني عتبًا في خَتَنِ "أحمد"، وقالوا إنه ما مات في الميعاد كما وعد في الإلهام وأكد، بل نجده ببَخْت أسعَدَ، وعيشٍ أرغَدَ، وما نرى أثرًا فيه من ضعف المريرة، ولا عُسْرًا في امتراء المِيرة، وإنه حيٌّ سالِمٌ إلى هذا الحين.

**أما الجواب** فاعلم أن هذا الإلهام كان مشتملا على الشُّعبتين، شُعبة في موت "أحمد" وشعبة في خَتَنه الذي جعله كقُرّةِ العين. فأتمّ الله شعبة أولى في الميعاد، ومات "أحمد" كما أُخبِرَ في إلهام رب العباد، وتلظّى أقاربه مِن همٍّ موته، وقد لاحت لك تفاصيل فوته، فلا بد لك أن تقرّ بصدق هذه الشعبة باليقين.

وأما الشعبة الثانية التي تتعلق بخَتَنه وفوته، فلا يختلج في صدرك تأخير موته، فإنه أمرٌ لا تفهمه إلا بعد الإحاطة على الواقعات، فإذا فهِمتَ فيظهر عليك خطَؤُك كالبديهيات، وتقرّ بأن الشيطان أنساك طريق الحق والحقيقة، وبَعَّدَك عن الصراط والطريقة، وأراد أن تلحقك* بالغاوين.

فالآن نقصّ عليك القصة، لتطّلع على الحقيقة وتجد منها الحصّة، ولتكون من المستبصرين. **فاعلم** أن زوجة "أحمد" وأقاربها كانوا من

* *سهو، والصحيح: "يلحقك". (الناشر)*

عشيرتي، وكانوا لا يتخذون في سبل الدين وَتيرتي، بل كانوا يجترئون على السيئات وأنواع البدعات، وكانوا فيها مفرطين. فأُلْهِمتُ من الرحمن أنه معذِّبُهم لو لم يكونوا تائبين. وقال لي ربي إنهم إن لم يتوبوا ولم يرجعوا فنُنـــزِل عليهم رِجْسًا من السماوات، ونجعل دارهم مملوّة من الأرامل والثيّبات، ونتوفّاهم أباترَ مخذولين. وإن تابوا وأصلحوا فنتوب عليهم بالرحمة، ونغيّر ما أردنا من العقوبة، فيظفرون بما يبتغون فرحين. فنصحتُ لهم إتماما للحجة، وقلت استغفِروا ربّكم ذي* المغفرة. فما سمعوا كلماتي، وزادوا في معاداتى. فبدا لي أن أشيع الاشتهار في هذا الباب، لعلهم يتقون ويرجعون إلى طرق الصواب، ولعلهم يكونون من المستغفرين.

فأشعتُ الاشتهارَ، وأنا في "هُشْيَارَ"، فنبذوه وراء ظهورهم غير مبالين. وكان ذلك أول الاشتهارات في هذه المقدّمة، والبواقي التي أُشيعتْ بعدها فهي لها كالأنباء المفصّلة المصرّحة، وكالتفصيل للعبارات المُجْملة السابقة. وأنت تعلم أن وعيد ذلك الاشتهار كان مشروطا بشرط التوبة، لا كالعقوبة القطعية الواجبة النازلة من غير المُهْلة. وإن شئت فاقرأْ اشتهارا مني طُبع في "غوضف"◈ من

---

* *سهو، والصحيح: "ذا". (الناشر)*

◈ *"غوضف" بحساب الجمل تساوي ١٨٨٦. وقد استخدم حضرته أسلوب تضمين الأرقام في كلمات؛ وهو أسلوب عربي قديم معروف كان يستخدمه الأدباء والشعراء لحفظ التواريخ بطريقة سهلة. فمثلا عندما مات السلطان المملوكي "برقوق" صاغ أحد الأدباء في عصره شبه الجملة: "في المشمش" والتي مجموعها ٨٠١ وهي عام وفاته*

السنوات المسيحية، لِغَضْفِ كبرِ هذه الفئة الباغية. فلما لم ينتهوا بهذا الاشتهار، ولم يتركوا طريق التبار، فكشف الله علي أمورا لتلك الفئة، وأنا بين النوم واليقظة، وكان هذا الكشف تفصيل ذلك الإلهام في المرة الثانية.

وبيانه أني كنت أريد أن أرقُد، فإذا تمثّلتْ لي أمُّ زوجة "أحمد"، ورأيتها في شأنٍ أحزَنَني وأرجَدَ، وهو أني وجدتُها في فزع شديد عند التلاقي، وعبراتها يتحدرن من المآقي، فقلت: أيتها المرأة توبي توبي فإن البلاء على عَقِبكِ.. أي على بنتِك وبنتِ بنتك. ثم تنَزّلتُ من هذا المقام، وفهِمتُ من ربي أنه تفصيل الإلهام السابق من الله العلام، وأُلقِيَ في قلبي في معنى العَقِب من الديّان أن المراد ههنا بنتها وبنت بنتها لا أحدٌ من الصبيان، ونُفِثَ في رُوعي أن البلاء بلاءان، بلاء على بنتها وبلاء على بنت البنت من الرحمن، وأنهما متشابهان من الله أحكم الحاكمين[٥]. وإذا رجعتُ لتفتيش لفظ العَقِب إلى

---

*بالهجرية. وقد اختارها لما لها من تشابه باسمه "برقوق". كذلك عندما توفي الشاعر "الدلنجاوي" رثاه صديق له في أبيات جاء فيها:*

*فقلتُ لمن يقول الشعر أقصِرْ فقد أَرَّختُ: مات الشعر بعدهْ*

*وجملة "مات الشعر بعده" قيمتها العددية ١١٢٣ وهو العام الهجري الذي توفي فيه. (الناشر)*

[٥] **الحاشية**: قد سمع مني هذا الكشف بمقام "هوشياربور" قبل موت "أحمد"، بل قبل إشاعة واقعات كلّها، رجلٌ من وُلْد شيخ صالح غزنوي، وكما تعلم كان هذا الرجل ابن تقي، ونسيت اليوم اسمه، وأعرف وجهه، لعل اسمه عبد الرحيم أو عبد الواحد على اختلاف انتقال الخيال، وأظن أنه لا ينكره عند السؤال، والله يعلم ما في البال، وهو أعلم ما في صدور العالمين. ومعه أشهاد آخرون كانوا هناك حاضرين، وأظن أن أحدا

اللغات العربية، فإذا فراستي صحيحة مطابقة بالمعاني المرويّة، فشكرتُ الله مؤيّد الملهَمين.

فالحاصل أن الله صرّح في هذا الكشف ما أراد من نوع التخويف والإنذار، وأشار إلى أن الآفة على زوج "أحمد" وبنتها من الله القهار. ومع ذلك حثّ على التوبة والاستغفار، وأومأَ به أن العذاب يؤخَّر بالتضرع والرجوع إلى الغفار، ولا يحل الغضب إلا عند الإباء، والاجتراء والاعتداء، ومن تاب واستغفر فله حظ من رحمة حضرة الكبرياء، ولا يأخذه عذاب مهين، إلا بعد العود إلى سير الفاسقين. فأشعتُ هذا الكشف بالاشتهار، كما أشعت إلهامي قبله لهداية الأحرار. ثم إذا مضى عليه ملِيٌّ من الزمان، أُلْهِمتُ فيهم مرة ثالثة من الله الديّان، وتجلّى هذا الإلهام كالنور في الظهور، ورفع الحجب كلها من السرّ المستور، وكان هذا شرحا مبسوطا للإلهامات السابقة، وتفصيلا للكَلِم المجمَلة الكشفية، وبيانا واضحا للسامعين.

وبيانه أن الله خاطبني في عشيرتي المعتدين، وقال: "كذّبوا بآياتي وكانوا بها مستهزئين، فسيكفيكَهم اللهُ ويردّها إليك، لا تبديلَ لكلمات الله، إن ربّك فعّالٌ لما يريد. فأشار في لفظ "فسيكفيكَهم اللهُ" إلى أنه يرُدّ بنتَ "أحمد" إليّ بعد إهلاك المانعين. وكان أصل

---

منهم كان بابو إلهي بخش أكونتنت الملتاني، ومحمد يعقوب أخ الحافظ محمد يوسف، ومعه محمد يوسف وكثير من المسلمين. وعفا الله عني إن كنت أخطأت في ذكر أحد منهم، فإني لست أحصيهم باليقين، وقد مضى على هذا إحدى عشرة من سنين. منه

المقصود الإهلاك، وتعلم أنه هو المَلاك، وأما تزويجها إياي بعد إهلاك الهالكين والهالكات، فهو لإعظام الآية في عين المخلوقات بإدراج المشكلات المعضلات، أو لِحِكَمٍ أخرى من عالم المغيبات، أو لرحمٍ على المصابين والمصابات، فإنه يضع المرهم بعد الجرح، ويعطي الفرح بعد الترح، ولا يريد أن يجيح عباده المستضعفين. ومَن أزيدُ منه جُودا ورحما؟ وهو أرحم الراحمين.

وإني أجد إشارة في الاشتهار الأول في هذا الباب، من الله الراحم الوهاب، فإنه قفّى بذكر رحمته بعد ذكر عقوبات نازلة على هذه الفئة، وبعد ذكر أراملهم ومصائبهم المتفرقة، فخاطبني بنهجٍ كأنه يشير إلى الرحم عليهم في الأيام الآتية، فقال: "يباركك الله ببركات مستكثرة، ويُعمَر بك بيتٌ مخرَّبٌ، ويُملأُ بك مِن بركات دارٌ مخوّفةٌ". فهذه إشارة إلى زمان يأتي عليهم بعد زمان الآفات، عند وُصْلة مقدّرة موعودة في الاشتهارات، وتتم يومئذ كلمة ربّنا، وتسودّ وجوه عِدانا، ويظهر أمر الله ولو كانوا كارهين. وإن الله غالب على أمره وإن الله يخزي قوما فاسقين. فأهلكَ كما وعد في "فسيكفيكَهم" أربعةً منهم بعد تزويجها، وعاث فيهم ذئبُ الآفات عَقِبَ تزليجها، كما لا يخفى على المطلعين. فإنه أهلكَ **أباها وعمّتَيْها وجدّتَها**، وكان كل أحد من الغالين المعتدين. والآن ما بقي إلا واحد من الهالكين. فانظروا إلى حكم الله كيف أتى الأرض من أطرافها، وانتظِروا ساعة يوفي فيها شَظافَها. إنه لا يبطل قوله، وإنه لا يخزي قومًا ملهَمين.

واعلم أن حرف الفاء على لفظ "فسيكفيكَهم الله" من الرحمن بعد ذكر تكذيب أهل الطغيان، كان إشارة إلى أن العذاب لا ينْزل إلا عند التكذيب والعدوان. فلما كذّبوا بعد التزويج وقاموا بالاستهزاء وآذوني بأنواع الإيذاء، فأمات الله أباها "أحمد" وبدّل ضحكهم بالبكاء، وغشِيهم من الغم ما غشِي قومَ يونس عند إيناس آثار العذاب، وألقاهم موتُ المائت وخوفُ نفس الخَتَن في أنواع الاضطراب. ولما بلغ نساءَهم نعيُ موت "أحمد"، وكنَّ من قبل كرجل أكفَرَ وأكنَدَ، عطَطْنَ جيوبهن، وأسلْنَ غروبهن، وصككن خدودهن، وتذكرن عنودهن، وهاجت البلابل، وانقضّ عليهن من المصائب الوابل، واهتزّت الأرض تحت أقدامهن، ثم تمثَّلَ موتُ الخَتَن في أوهامهن، وطفِقن يقُلْن والدموع تجري من العيون: هذا ما وعد الرحمن وصدَق المرسلون.

فالحاصل أن هؤلاء أوجسوا في أنفسهم خيفة، وظنوا أن خَتَنهم سيموت كما مات صهره عقوبةً، فإنهما كانا غَرَضَين مقصودين في إلهام واحد، وكان موت أحدهما للآخر كشاهد، ومن المقتضى* الفطرة الإنسانية أنها تقيس بالأحوال الموجودة للأشياء على أحوال أشياء أخرى تضاهيها بنحو من الأنحاء، فتفهَم أن واقعات آتية ليست إلا كمثل نظائرها المشهودة، وتستنبط الأحكام المنتظرة من الأحكام الواردة، وكذلك جرت عادة المتوسمين. فلما انكشف على

* سهو، والصحيح: "مقتضى". (الناشر)

عشيرتي بموت "أحمد" النظير وبدا المَثَل الكبير، فخافوا خوفا كثيرا مع إكثار البكاء، ونسوا طريق التمسخر والاستهزاء، وزُمّتْ ألسنهم وصاروا كالمبهوتين. وتنصّلوا من هفوتهم، وتندموا على فوهتهم، وخضعت أعناقهم كالمصابين.

وقد علمتَ أن هذا الإلهام كان لإنذار هذه العشيرة، وكان الوعيد وشرطه لتلك الفئة، وما كان لِختَنهم دخلٌ في هذه القصة. ثم ليس من المعقول أن يُظَنّ أن قلب ختنهم بقي على الجرأة السابقة، مع معاينة موت صهره الذي كان شريكه في نبأ الهلاكة، بل شهد الشاهدون أنه خاف خوفا شديدا بعد هذه الواقعة، وكاد أن تزهق نفسه بعد سماع هذه المصيبة، وخشي على نفسه، وحسب النكاح آفة من الآفات السماوية، وإن كنت في شك فاسأَل العارفين الناظرين.

فالحاصل أنهم لما تخوّفوا بعد موت "أحمد"، وخوّف هلاكُه كلَّ أحد وأرجَدَ، فكان حقهم أن ينتفعوا بشرط الإلهام، فإن العذاب كان مشروطا لا حُكما قطعيا كما هو وهم العوام. فاسألْ أهل "أحمد" ما جرى على زوجه الأرملة بعد موته في الميعاد، وكيف صُبّتْ عليها مصائب وهجَم الهموم على الفؤاد، وما بقِي لها ثِمالٌ ولا نَوِيٌّ ولا متكفّلُ الأولاد، وقعدتْ كالمساكين بعد كونها كالفَيّاد، وكيف سمعتْ نعيَه بعين عَبْرَى، وقلب على جمر الغضا، وكيف جرى عليها ما جرى. ثم أكلها خوفُ موت الختن بعد هذا النَآد، وأنفدتْ أيامَ الميعاد بالارتعاد. وكذلك فزعتْ أمُّها وأخواتها

وذُبْنَ في فكرِ موت الختن، وشربن كأسات الحزن، وجعلن عمرن* أوقاتهن بالصلاة والدعوات، والصيام والصدقات. وما رقَأ لهن من الهمّ دمعةٌ، وتمثّلَ لهن لِختنهن في كل وقت مَنِيّةٌ، فاسأل أهل هذه القرية إن كنت من المرتابين.

فالحاصل أنهم لما تابوا تاب الله عليهم بالرحمة والمغفرة، كما هي سنة قديمة من السنن الإلهية، فإنه لا يلغي شرط وعيده ولا يترك طريق المعدلة، ولا يظلم كالمعتدين. وعليك أن تقرأ اشتهاراتي السابقة، وتجمع في نظرك المقامات المتفرقة، فإذا فعلتَ ذلك فتصل إلى نتيجة صحيحة، وتطلع على شروط صريحة، وتنجو من طريق الخطأ والخاطئين. وقد علمت أني أشعت في هذا الأمر اشتهاراتٍ ثلاثٍ في الأوقات المتفرقة، وما كان إلهام في هذه المقدمة إلا كانَ معه شرط كما قرأتُ عليك في التذكرة السابقة. ألم تُنَبَّأُوا بما أشعتُ في السنوات الماضية، فأين تذهبون كالثاغية أو الراغية، ولا تفكرون كالعاقلين؟

ثم ما قلتُ لكم إن القضية على هذا القدر تّمتْ، والنتيجة الآخرة هي التي ظهرت، وحقيقة النبأ عليها ختمت، **بل الأمر قائم على حاله**، ولا يردّه أحد باحتياله، والقدر قدر **مبرَم** من عند الرب العظيم، **وسيأتي وقته** بفضل الله الكريم. **فوالذي** بعَث لنا **محمدا** المصطفى، وجعله خير الرسل وخير الورى، **إن هذا حق فسوف**

---

* سهو، والصحيح: "يعمرن". (الناشر)

**ترى.** وإني أجعل هذا النبأ **معيارا لصدقي أو كذبي،** وما قلت إلا بعد ما أُنْبِئتُ من ربي. وإن عشيرتي **سيرجعون** مرة أخرى إلى الفساد، ويتزايدون في الخبث والعناد، فينـــزل يومئذ الأمر المقدر من رب العباد. لا رادَّ لما قضى، ولا مانِعَ لما أعطى. وإني أراهم **أنهم قد مالوا إلى سيَرِهم الأولى، وقست قلوبهم** كما هي عادة النَّوكَى، ونسوا أيام الفزع وعادوا إلى التكذيب والطغوى، **فسينـــزل أمر الله إذا رأى أنهم يتزايدون،** وما كان الله أن يعذّب قوما وهم يخافون.

**فاعلموا أيها المكذّبون الغالون،** أن صدقنا سيُشرِق كذُكاءٍ في الضياء، وزُوركم يفشو إلى ضواحي الزوراء، أتمنعون ما أراد اللهُ ذو العزة والعلاء؟ أيبلغ مكركم إلى ذُرى السماء؟ فكيدوا كل كيد كان عندكم ولا تُمهِلونِ في الإيذاء، ثم انظروا إلى نصرة رب العالمين.

**يا حسرة** على علماء هذا الزمان! ما بقي فيهم نور فراسة وغاضَ دَرُّ الإمعان، سَمَّعْناهم فلا يسمعون، وقرَيناهم فلا يقبَلون، ولا يقرأون كتبي إلا كارهين، ويفرّون منا مستنفرين.

ثم أنتم تعلمون يا أولي الألباب، أن قوم يونس عُصموا من العذاب، مع أنه لم يكن شرط التوبة في نبأ الله رب الأرباب، ولأجل ذلك ذهب يونس مغاضبا من حضرة الكبرياء، وتاهَ في فلوات الابتلاء، ولذلك سماه الله يُونس لأنه أُوْنِسَ بعد الإبلاس، وفاز بعد

اليأس، وما أضاعه أرحم الراحمين. فلا شك أن البلاء كله ورَد عليه لعدم الشرط في نبأ الرحمن، ولو كان شرط يعلمه لما فرّ كالغضبان، ولما تاه كالمبهوتين. ولما ترك يونس بسوء فهمه الاستقامةَ والاستقلال، وتحرّى الجلاء والانتقال، أدخله الله في بطن الحوت، ثم نبذه الحوت في عَراء السُّبْرُوت، ورأى كلَّ ذلك بما أعلنَ ضجرَ قلبه بالحركة من المقام، وفارقَ مقرَّه من غير إذن الله العلام، وفعَل فعل المستعجلين. وإدخاله في بطن الحوت كان إشارة إلى مُحاوتة صَدَرَ منه كالمبهوت، وكذلك سماه الله ذا النون، بما ظهر منه حِدّةٌ ونُونٌ، بالغضب المكنون، ولا يليق لأحد أن يغضب على رب العالمين.

فالحاصل أن قصة يونس في كلام الله القدير، دليل على أنه قد يؤخَّر عذاب الله من غير شرط يوجب حكم التأخير، كما أُخِّرَ في نبأ يونس بعد التشهير، فكيف في نبأ يوجد فيه شرط الرجوع؟ ففكِّر بالخضوع والخشوع، ولا تنسَ حظك من التقوى والدين. وإن قصة يونس موجودة في القرآن والكتب السابقة والأحاديث النبوية، وليس هناك ذكرُ شرط مع ذكر العقوبة، وإن لم تقبَل فعليك أن تُرينا شرطا في تلك القصة، فلا تكنْ كالأعمى مع وجود البصارة. واعلم أن الشرط لم يكن أصلا في القصة المذكورة، ولأجل ذلك ابتُلِيَ يونس وصار من الملومين، ونزلت عليه الهموم، وأخذه الضجرُ المذموم، حتى استشرفَ به التلَفُ، ونسِي كلَّ بلاء سلَف، وظنّ أنه من المُفتَنين. فما كان سبب افتنانه إلا أنه استيقن أن العذاب قطعيٌّ لا يُرَدّ، وأنه سيقع في الميعاد كما يودّ، فانقضى الميعاد وما استَنْشى

من العذاب ريحًا، وما استغشى لباسا مريحا، فأضجرَه هذا الادّكار، واستهوتْه الأفكار، وكان رأَى القومَ غالين في المِراء، ومُنْبرين بالإباء، فحسِب أنه من المغلوبين. فقال لن أرجع إليهم كذّابًا ولن أسمع لعن الأشرار، وما رأى طريقا يختاره، فألقى نفسه في البحر الزخّار، فتداركَه رحمُ ربّه والتقمَه الحوت بحكم الله الجبّار، ورأى ما رأى بقلب حزين. فمن المعلوم أنه لو كان شرط في نزول العذاب، لما اضطر يونس إلى هذا الاضطراب، وما فر كالمتندمين. أما تقرأ كتب الأولين وقول خاتم النبيين؟ أتجد فيها أثرا من الشرط؟ فأَخْرِجْ لنا إن كنت من الصادقين.

فالآن ما رأيك في أنباء قُيِّدتْ بشرط الرجوع والتوبة؟ أليس بواجب أن يرعى الله شروطه بالفضل والرحمة؟ وقد قرأنا عليك تفاصيل هذه القصة، وفتحنا عليكم أبواب المعرفة واليقين. فما لكم لا ترون الحق بنور الفراسة؟ وتسقُطون كالأَذبّة على النجاسة، وتُعرِضون عن الشهد والقَنْد، وتسعون إلى عَذِرَة الفِرْية والفَند، ولا تبتغون لذاذة الطيبات، وتموتون للخبيثات، وطِبْتم نفسًا بإلغاء الحق والدين، ونبذتم حُكم ديّانٍ غمَرتْ مواهبُه العالمين.

**بِوحشِ البَــرِّ يُرجَى الائتلافُ وكيــف الائتــلاف بمن يَعافُ**
**قَــرَينا المعــرِضين بطــيِّــبات فردُّوا ما قــرَيناهــمْ وعــافُوا**
**بحُمْــقٍ يحسَبون الــدَّرَّ ضَــرًّا وأجــيافُ الفساد لهمْ جُوافُ**
**فمــا أردَى العِــدا إلا إبــاءٌ وظنُّ السَّوء فــينا واعْــتسافُ**

كلابُ الحـــيِّ قد نبحوا علينا ولا يَدْرُون حقــدًا ما العَفافُ
وقد صرنا حُــدَيَّا الناسِ طُـــرًّا وبرهــاني لِــمُــرّاني ثِقــافُ
أرَى ذُلاً بسُـــبْلِ الحــقّ عِــزًّا ووَهْــدي في رضا المولى شعافُ
وإنّ الله لا يُـــخـــزِيـــن أبــدًا أنا البـــازي المُوقَّـــرُ لا الغُدافُ
فمـــا للعـــالمين نسُوا مقـــامي قلوبٌ في صـــدورٍ أو وِحـــافُ
وقاموا كالسِّباع لهتكِ عِرضي وما بقِي الوِفـــاق ولا الوِلافُ
ولا يدرون ما حـــالي وقـــالي فإن مقـــامـــنا قصـــرٌ نِيـــافُ
تراهـــم مفـــسدين مكذِّبـــينا وسِيـــرهم عُـــنودٌ وانْـــتسافُ
فمن كفـــرانهم ظهَـــر البلايا وقَحـــطٌ ثم ذَأْفٌ وانجِـــعافُ
وإنّ المُـــلك أجدبَ مَـــعْ وباءٍ ويُرجى بعـــده سَبـــعٌ عِجافُ
إذا مـــا جاء أمـــرُ الله مَقـــتًا فلا أعـــنابَ فيه ولا السُّلافُ
وهـــذا كله مـــن سوء عمـــلٍ وبرٍّ ضيَّـــعوه ومـــا تَـــلافُوا
فتـــوبوا أيها الغـــالون توبـــوا وأَرْضُـــوا ربَّكم تَوْبًا وصافُوا
وخـــافَ اللهَ أهـــلُ العلم لكنْ غَـــوِيٌّ في "البطالة" لا يخافُ
له شِـــيَمٌ كأنّ البِـــيشَ فـــيها ومَعْـــهَا عُجْـــبُه سمٌّ زُعـــافُ
لـــه عنـــد اللُّـــبانة كلُّ مَـــيلٍ وتلبـــيةٌ بطَـــوعٍ والطـــوافُ
ولـــما حـــازَ مطلـــبَه وأَقْـــنَى فبارَى كالعِـــدا وبدا الخِلافُ
على الإسلام هـــذا الرجل رُزْءٌ ومقـــصده فساد وَازْدِهـــافُ

ثم من اعتراضات العلماء وشبهاتهم التي أشاعوها في الجهلاء، أنهم قالوا إن هذا الرجل لا يعلم شيئا من العربية، بل لا حظَّ له من

الفارسية، فضلا من دَخْله في أساليب هذه اللهجة، ومع ذلك مدحوا أنفسهم وقالوا إنا نحن من العلماء المتبحرين. وقالوا إنه كلّ ما كتب في اللسان العربية، من العبارات المحبَّرة، والقصائد المبتكَرة، فليس خاطِرُه أبا عُذْرها، ولا قريحته صدفَ لآليها ودُررِها، بل ألّفها رجل من الشاميين، وأخذ عليه كثيرا من المال كالمستأجرين، فليكتُبْ الآن بعد ذهابه إن كان من الصادقين.

فيا حسرة عليهم! إنهم لا يستيقظون من نعاس الارتياب، ولا يسرحون النواظر في نواضر الصدق والصواب، ولا ينتهجون مهجّة المنصفين. وتركوا الله لأَشاوِي حقيرة، وأهواء صغيرة، فإلامَ يعيشون كالمتنعمين؟ يُصَأْصِئون كما يصأصأ الجَرْوُ ولا يستبصرون، ويضاهي بعضهم بعضا في الجهل فهم متشابهون. وإذا قيل لهم تعالوا إلى حقٍّ ظهَر، وقمرٍ بهَر، فتشمئزّ قلوبهم ويهربون مستنفرين. أولئك الذين هتك الله أسرارهم، وكدّر أنظارهم، فتراهم كالعَمِين. يريدون أن يفسدوا في الأرض عند إصلاحها وجزَّءُوا الأمانة والدين. أتنفعهم أقوالهم إذا سئل ما أفعالهم، أو يفيدهم إفنادهم إذا ظهر فسادهم، أو يُبرَّؤون مع كونهم من الفاسقين؟ لا يتّقون عالِمَ سريرتِهم، ولا ينتهون عن صغيرتهم ولا كبيرتهم، ويعثُون في الأرض معتدين. يتركون أوامر الله ولا يكترثون، ويتبعون زهوهم ولا يبالون، ويسعون إلى السيئات ولا ينتهون. أيظنون أنهم يُتركون في الدنيا ولذّاتها، ولا يُقادون إلى الحاقّة ومجازاتها، ولا يُؤخذون كالمفسدين؟ أيحسبون أنهم ليسوا بمَرْأَى رقيبِهم، ولا بمشهد حسيبهم؟ **ألا يعلم الله**

ما يجترحون كالخائنين؟

يلِجون غابة الشيطان، ويذَرون حديقة الرحمن، ويمرّون بالحق مستهزئين. وإذا قيل لهم اقبَلوا الحق كما قبِل العلماء وأُتُوني كما أتى الأتقياء، صعّروا خدودهم كالمستكبرين. وقالوا لولا ألّف بعدَ الشاميِّ كتابا، إنْ كان صادقا لا كذّابا، فليأتِنا الآن بكتاب بعده إن كان من المؤلّفين.

**فجئنا الآن** لنؤتيهم نظيرها، بل كبيرها، والله موهن كيد الكاذبين. وقد ألفنا هذه الرسالة، ورتّبناها كما رتّبنا الرسائل السابقة، لندحض حجّتهم، ونقطع أُرُومتَهم، ونمزّق مَعاذير المبطلين. وإن هذا منّي في العربية **كآخر الكتب**، وأودعتها مِن مُلح الأدب، والأشعار النُخب، ليكون صاتًّا لدفعِ صخب الصاخبين، ولنهدم دار المفترين من بنيانها، وندوس جيفة وجودهم في مكانها، ولنلطم على وجوه المجترئين.

وإن كمالي في اللسان العربي، مع قلة جهدي وقصور طلبي، آيةٌ واضحة من ربي، ليُظهِر على الناس علمي وأدبي، فهل مِن مُعارِض في جموع المخالفين؟ وإني مع ذلك عُلِّمتُ أربعين ألفًا من اللغات العربية، وأُعطيتُ بسطةً كاملة في العلوم الأدبية، مع اعتلالي في أكثر الأوقات وقلّة الفترات، وهذا فضل ربي أنه جعلني أبرَعَ مِن بني

الفُرات،✪ وجعلني أعذبَ بيانًا من الماء الفُرات. وكما جعلني من الهادين المهديين، جعلني أفصح المتكلمين. فكمْ مِن مُلح أُعطيتُها، وكم من عذراءَ عُلِّمتُها! فمن كان مِن لُسْنِ العلماء، وحوَى حُسْنَ البيان كالأدباء، فإني أستعرضه لو كان من المعارضين المنكرين.

وقد فُقْتُ في النظم والنثر، وأُعطيتُ فيها نورا كضوء الفجر، وما هذا فِعْلَ العبد، إنْ هذا إلا آية رب العالمين. فمن أبى بعد ذلك وانزوى، وما بارزَني وما انبرى، فقد شهِد على صدقي ولو كتم الشهادة وأخفى.

يا حسرة على الذين يذكرونني بإنكار! لِمَ لا يأتونني في مِضمار؟ يشهَقون في مكانهم كحمار، ولا يخرجون كمُمار، إنْ هم إلا كعُود ما له ثمر، أو كنخل ليس عليه تمر، ثم مع ذلك يخدعون الجاهلين. إنَّ هم إلا كدارٍ خَرِبةٍ، أو جدران منقضّة. يعلّمون الناس ما لا يعمَلون، ويقولون ما لا يفعلون. خبَتْ نارهم، وتَوارى أُوارهم، وختم الله على قلوبهم، وأبادهم بعد شحوبهم، فتراهم كأموات غيرِ أحياء ساقطين.

وكان في هذه الديار **تسعةُ رَهْطٍ من الأشرار**، وكانوا مفسدين في الأرض ولا ينتهجون مهجّةً الخِيار، وما كانوا صالحين. ووجدتُهم في الكبر والإباء، كالجُملة المتناسبة الأجزاء، أو كأمراض

---

✪ *المراد من "بني الفرات" هنا بحسب ما ورد في الترجمة الفارسية تحت هذه الكلمة: أربعة من الوزراء العباسيين وهم: أبو الحسن علي، وعبد الله جعفر، وأبو عيسى إبراهيم، ووالدهم محمد بن موسى بن حسن بن الفرات. (الناشر)*

متشابهة في الخبث والإيذاء، ورأيت كلهم من المعادين المعتدين.

فمنهم رجلٌ أَمْرَتْسَري يقال له "الرسل البابا". إنه امرؤ لا يعرف صدقا ولا صوابا، وكذّب بآياتنا كِذّابا. وخالَطه زُمَرٌ من السفهاء، فقعدوا بحذاء شمس كالحِرباء، وقالوا إنا نريد أن نعارضك كالأدباء، ولكنا لا نجيئك كما تريد بل أُتِنا كالغرباء، وإذا جئت فنبارز كالمعارضين.

فعُفْتُ المسعى في أوّل نظري إلى الجهلاء، وأخذتْني أَنَفةٌ أن أحضُر مجلس الحمقاء، ثم رأيتُ أن لا تعنيفَ على من يأتي الكنيف. فقبلتُ كل ما قالوا، ومِلتُ إلى ما مالوا، وكتبت إليهم أني أقبل أن أكتب مناضِلا في ندوتكم، فعليكم أن تكتبوا مثل ما أكتب أمام مُقْلَتكم، **أوَ أَسْمِعوني ما أكتب** كما زعمتم كمال درايتكم، **فصمتوا وسكتوا** كأنهم من الميتين.

وقد أُشيعَ بعده الاشتهارُ وأُفْشِيَ الأخبار، وأمضَضْناهم وأحفَظْناهم فصمتوا كرجلٍ ألثَغَ، وسكتوا كالذي على تُرْبِ الهوان مُرِّغَ، فانقلبنا عنهم كالمنصورين. فيا حسرة على "الرسل البابا"! إنه ما خاف ربًّا توّابًا، ورأى ذُلاً وتبابًا، وإنه شبَّ نارًا ثم أخمدها خوفا واضطرارا، وجال في شجون، ثم خاف مخلبَ مَنون، ونسي كل مُجون، ومع ذلك ما ترك سِيَرَ المتكبرين.

**ألا أيها الأَبّارُ مثلَ العقاربِ إلامَ تُرِي كبرًا ولَيَّ الشَّوارِبِ**
**ما أنت إلا قطرةٌ تحتَ وَهْدةٍ فلا تتصادم بالبحور الزغارِبِ**

ومن التسعة الذين أشرتُ إليهم رُجَيلٌ يقال له "**أصغر**"، وإنه يزعم في نفسه كأنه أكبر، ويزدريني مفتريًا من غير استحياء، ويسبّني في محافل وأملاء، فسيعلم كيف يُجعَل من الأصغرين. إنه يتبع الهوى، ولا يجري طَلْقًا مع التقوى. يريد أن يفضّ ختوم الشهوات ولو بالجنايات، ويجتني قطوف اللذات ولو بالمحرمات. وكذلك تأهّبت له الرفاق، وازداد من المنافقين النفاق، واستحكمَ في الطباع الذميمة، حتى سبق إخوانَه في النميمة. وما أرى مَدْحَرَةً لشيطانه، إلا أن أدعوه لامتحانه، فأُقبِل عليه إقبالَ طالبِ المناضلَ، ليتبين أمر الجاهل والفاضل. وإنه كان يطلبني لوَغاه، **فاليوم نُرضيه بما يهواه.** وقد خاطبتُه من قبل ذاتَ العُوَيم، لأزيل ما علا قلبَه كالغَيم، فقلتُ آتِني كالرائد وتمتَّعْ من الموائد، فإن كنتَ رأيناك كسحابِ مُطَير، أو ثبت معك من البلاغة كمَيْر، فنؤمن بك وبحسن بيانك، ونشيعُ صفاتِ علوِّ شأنك، فيسُوغ لك بعده أن تغلّطنا في إملائنا، وتأخذ أغلاطَ إنشائنا، كما أنت تظن كالجاهلين الغافلين. ومع ذلك نحسبك أنك ذو مقْوَلٍ جَرِيٍّ، ونابغةُ كلام عربيّ، ويجوز لك ما لا يجوز لغيرك من ازدراء، والطعنِ على إملاء، وتُحمَد عند الناس كالفاضلين المؤدّبين.

وأما طَرْزُ ازدرائك، قبل إثبات علمك وعلائك، فما هذا إلا لُبوسُ سفيهٍ يترك الحياء، وعادة ضريرٍ لا يرى الأضواء، فيحسَب النهار المنيرَ ظلاما، والوابلَ جَهاما. وإن كنتَ من رجال هذا المضمار، ووليجة أهل هذه الدار، فأَرِنا كمال إنشائك قبل

ازدرائك، وأْتِ بكتاب من مثل هذا الكتاب، ثم اجعلْ بيني وبينك حَكَمًا أحدا من أولي الألباب؛ فإن شهِد الحَكَم على كمالك وحسن مقالك، وظن أنك جئت بأحسن من كلامي، وأريتَ نظاما أجمل من نظامي، فلك من بعد أن تتخذ جدِّي عبثًا، وتجعَل تبري خَبَثًا، وأن تحسب دُرِّي الغُرَّ كليلٍ دامسٍ، وبياني الواضحَ كطريقٍ طامس، وتُشيع عِثاري في العالمين. وإن لم تفعل، ولن تفعل، فاتّقِ لعن اللاعنين.

**ألا لا تَعبْني كالسَّفيهِ المُشارِزِ وإنْ كنتَ قد أزمعتَ حربي فبارِزِ**
**وإنك تذكُــرني كرجلٍ محقّرٍ وتلــمزني في كل آن كمارِزِ**
**وإنا سمــعنا كلَّ ما قلتَ نَخْوةً أتحسَب خَــضْرائي بحُمْقٍ كتارِزِ**
**وما كنتُ صَوّالاً ولكنْ دعوتَني قد بانَ أنك تزدريــني كغارِزِ**
**ولا خيرَ في طَغْواك يَا ابْنَ تكبُّرٍ ويفقَأُ ربي عــينَ دُون مُعــارِزِ**
**فحَرِّجْ على نفسٍ تُبيدك واجتنِبْ مَناهجَ فَــقْأ فاجــأَتْك كفارِزِ**
**ولا تنتهِجْ سُبْلَ الغواية واكتئِبْ على ما عراك وتُبْ بقلبٍ آرِزِ**

ومن المعترضين المذكورين شيخٌ ضالّ بطالويٌّ وجارٌ غويٌّ، يقال له **محمد حسين**، وقد سبق الكلَّ في الكذب والمَين. وإنه أبى واستكبر، وأشاع الكبر وأظهر، حتى قيل إنه إمام المستكبرين ورئيس المعتدين، ورأس الغاوين. هو الذي كفّرني قبل أن يكفّر الآخرون، واعترض على كتبي وأظهر جهله المكنون. فقال إن تلك الكتب مشحونة من الأغلاط، وساقطة في وحل الانحطاط، وليست كماءٍ

مَعين. وإن هذا الرجل من الجاهلين، وكل ما يوجد في كتبه من مُلحها وقيافيها، فليس قريحتُه حجرَ أثافيها، بل تلك كَلِمٌ خرجت من أقلام الآخرين.

فقلتُ: يا شيخَ النَّوكَى، وعدوَّ العقل والنُّهى، إن كتبي مبرَّأة مما زعمتَ، ومنـــزّهة عما ظننت، إلا سهو الكاتبين، أو زيغ القلم بتغافُل مني لا كجهل الجاهلين. فإن قدرتَ أن تُثبت فيها عثارًا، فخُذْ مني بحذاء كل لفظ غلط دينارًا، واجمَعْ صَريفًا ونِضارًا، وكُنْ من المتمولين. وهذا صلةٌ تلائم هواك، وتَقَرُّ به عيناك، وتستريح به رجلاك، فتنجو من السفر الدائم، ولا تتيه كالشحّاذ الهائم، وتقعد كالمتنعمين، وتغنى به عن جعائل أخرى ومكائد شتى، وإشاعة "عدوِّ السُنّة"✪، ووعظ الدجل والفرية، وتعيش كالمستريحين. بيد أني أريد أن أرى قبله رَيًّا فصاحتك، وأشاهد أَريجَ بلاغتك، لأفهم أنك من علماء هذه الصناعة ومن أهل تلك الصولة، ولستَ من الجاهلين المحجوبين العمين.

فاتفقَ لوَشْلِ حَظِّه المبخوس ونَكْدِ طالِعِه المنحوس، أنه ما قبِل هذه الصلة، وما سنّى نفسه ليقبل هذه الشريطة، وخشِي الذلة والفضيحة، وتوارى كالمتخوفين، وقال لو نشاء لقلنا مثل هذا ولكنا لسنا بفارغين. وما خرج من بيته، وما أرى نموذجَ زيته، وما تفوّهَ إلا كالمتصلفين. وتحرّيتُ في صِلتي مرضاتَه، لأنقُد بحيلةٍ حَصاتَه،

✪ إشارة إلى جريدة كان الشيخ البطالوي يملكها و يحرّرها باسم "إشاعة السُنّة" . (الناشر)

وأَمخض لبنه وأُرِي جهلاته. فكأن النعاس راودَ آماقَه، أو الخنّاس حبَّب إليه إباقَه، فرأيتُ أن حَرَّه قد باخَ، وعَزْمَه هرِم وشاخَ، وتراءى كالمُضْمَحِلّين.

ووالله إني أستيقن أنه لا يقدر على إملاء سطر أو سطرين، وكل ما يقول يقول من المَين، بل لا أظن أن يقدر على فهم مقالي، ويبين في المجلس فَحْواءَ أقوالي، وإنه من الكاذبين. وإني أعرفه من قديم الزمان، ولكني كنت أستر حاله وأسعى للكتمان، بل إذا نطق أحد لإفشاء سِرّه، فطويتُه على غَرِّه، وصُنْتُ عِرضه من الناهشين. ثم رأيت أنه لا يسدَر عند غلوائه، ولا ينْزع عن نفسه ثوبَ خيلائه، ولا يترك سير جهلاته، ولا يتوب من خزعبيلاته، بل يظن أنه ينفعه كيدُه، ويُسخَّر به صيده. فلما رأيت أن أعماله ستُوبِقه، وأن دلاله سيُقلِقه، أشعتُ من سيئاته بعض الهنات، وإنما الأعمال بالنيات، وعليها مدار المجازاة.

ثم نعود إلى قصتنا الأولى، فاعلم أنه دعانا ثم أبى، وما حمله على ذلك إلا خوف أحرقَه بنار اللظى، فإنه قرأ كتبنا فوجدها كدُرٍّ أجلى، فأوجس في نفسه خيفة وما أبدى، وأنقضَ ظهره ما رأى. فما تمالك أن يشجّع قلبَه المزءودَ، ويحضر الموطن الموعود، ويُري جَناه والعُودَ. بل أشار إلى رُجَيلٍ وَغْبٍ، وفرخٍ ليس عليه إلا زَغْبٌ، واحتال وقال إني لن أخرج من جُحْري، وهذا تلميذي قد رُبِّيَ في حِجري، فبارِزْه إن كنت من المبارزين، وإني أنساب كالتِّنِّين من خوف القاتلين.

فقلت يا هذا، لا تحسب أن تنجو من مخلبي بكيد، ولو صرتَ جدَّ أبا زيد، وإني أعلم حيل الماكرين. ألا تعلم أنه مِن أدنى تلاميذك، وما شرِب إلا جرعة من نبيذك، فإنه ليس كمثلك في الطاقة العلمية، ولا على غَلْوَة من مراحلك المعلومة، فضلا مِن أن يكون أكبر منك في العلوم، فلا تفوّض أمرك إلى الغبيّ الزَّغوم، ولا تكن من الخادعين. وأنت تعلم أنه كابن بُوْحك، أو شقيق روحك، وما شرب إلا من صَبوحك، وقد غُذِّيَ بلُبانتك، فقصّتُه تُطوَى بقصّتك، وبعد هزيمتك هزيمته بيّن، وإذا مزَّقْنا الصَلْبَ فقد كُسِرَ لَيِّنٌ. فإذا سمع قولي، ورأى صَولي، ففرَّ كفَرِّ الوَعْلِ، وانساب إلى جُحره بالمَعْلِ، ونسِي كلَّ أريز كالمتندمين. وأحفظتُه بكَلِمٍ مؤلمة، وألفاظ موجعة، لعلّه يقوم لمناضلة، ويأتيني لمصارعة، فما أتى المضمار، وحسِب أنه يلِج النار، واختفى كالمذروعين.

ثم ما غبر على ذلك الزمان إلا شهر أو شهران، حتى أشاع في تحقيري رسالة، وعزا إليّ زندقة وضلالة، ليستر به جهلا يُخزيه، ويزيّن شأنه في أعين تابعيه، ويكثّر سوادَ طالبيه، ويؤذي قلوب المسترشدين. فلما رأيت أنه أفاق من إغمائه، وضحك بعد بكائه، ورجع إلى أدراجه، واستراح بعد انزعاجه، ورقأتْ دَمْعتُه، وانفثأتْ لَوعتُه، رأيت أن أُتمّ عليه الحجة مرة ثانية، وأسلّط عليه من الحق زبانية، **فاليوم قمتُ لهذا المرام**، لعل الله يهديه إلى دار السلام. إنه يحول بين المرء وقلبه وإنه يشفي المؤوفين.

فيا أيها الشيخ الضالّ، والمفتري البطّال، ألم يأن لك أن تتوب

وتليِّن البال؟ أتفرح بحياة فيها البلايا، وفي آخرها المنايا؟ طالما أيقظتُك بالوصايا، ووضعتُ أمام عينيك المرايا، ثم أقسمتُ لعلك تطمئن بالألايا، فقلتُ والله إني لست بمفتر وأعوذ بربّ البرايا، أن أسعى إلى الخطايا، فما ظننتَ إلا ظن السوء وما تكلمتَ إلا كالمحترئين. أيها الشيخ إن الدنيا فانية، والذي يبقى فهي حضرةٌ ربانية. ترى رجلا متنعما في المساء، ثم ترى ذاتَ بكرة أنه ليس من الأحياء. والموتُ يُهلك أفعى أعجزَ الراقِي، وكلّ شيء فانٍ ويبقى وجه الله الباقي. وأَيْمُ اللهِ، إنّ دِيمتي قد انهلّت من الرحمن، لا من مساعي الإنسان، ولذلك دعوتك أن تأتيني كصديق حميم، فأظهرتَ نفسك كصديد حميم.

وإني أُيّدتُ من الله القدير، وأُعطيت عجائب من فضله الكثير. ومن آياته أنه علّمني لسانا عربية، وأعطاني نكاتا أدبية، وفضّلني على العالمين المعاصرين. فإنْ كنتَ في شكّ من آيتي، وتحسب نفسك حُدَيَّا بلاغتي، فتحامَ القالَ والقيل، واكتُبْ بحذائي الكثير أو القليل، وجَدِّدِ التحقيق ودَعْ ما فات، وبارِزْ في موطن وعَيِّنْ له الميقات. وعليّ وعليك أن نحضر يوم الميقات بالرأس والعين، ونناضل في الإملاء كالخصمَين. فإن زدتَ في البلاغة وحسن الأداء، وجئت بكلام يسرّ قلوب الأدباء، فأتوب على يدك من كل ما ادعيتُ، وأحرق كل كتاب أشعتُه أو أخفيتُ، ووالله إني أفعل كذلك، فانظُرْ أني أقسمتُ وآلَيتُ. فارحَمِ الأمة المرحومة، وعالِجِ الفتن المعلومة، فإن الفتن كثرت، والآفات ظهرت، وكُفِّرَ فوج من المسلمين من

غير حق والألسنُ فيهم طالت، فقُمْ رحمك الله ولا تقعد كالمنافقين.

ألا تستيقن أنك من العلماء الراسخين، والأدباء القادرين، ثم مع هذا تعلم أن الله مؤيّد الصادقين، ومُخزي الكاذبين، والله مولى أهل الحق ولا مولى للمفترين. وإن لم تقدر على المقابلة، ولم تقم للمناضلة، فرضيتُ بأن **تُسْمِعَني ما أكتُب** من العبارات الأنيقة، والجمل الرشيقة، وكفاني لو فزتَ بهذا* الطريقة، وأظهرتَ ما قلتُ على الحاضرين.

ولكني جرّبتك مذ أعوام، أنك لا تقوم في مقام، ولا تريد قطع خصام، وتنحت في آخر الأمر حيلا واهية، ومعاذير منسوجة كاذبة، وتفرّ كالمحتالين. فعليك أن لا تحتال كأيام سابقة، وتحضر على الميقات في رِياغة مقرَّرة، فإن كنتَ غالبا وفاءَ أمرُك إلى غلبة ورشاد، فأَخفِض لك جناحَ انقياد، وأتوب على يديك باعتقاد، كالذي قفَل من ضلال إلى سَداد. فأَلْفتُ اليوم وجهي إليك يا أبا المِراء، وإلى إخوانك من العلماء، وأدعوكم إلى مأدُبتي الجَفَلَى، وأبلّغ دعوتي إلى أهل الحضارة والفلا، فعليكم أن لا تعرضوا عن هذه الدعوة كما أبيتم ذات مرة في الأيام السابقة، فإن هذا يقضي بين الصادقين والكاذبين، وتتجلى منه آية رب العالمين، وتستبين سبيل المجرمين.

بيد أني لا أظن أن تحضُروا لفصل هذه القضية، والرجاء منقطع منك ومن أمثالك في هذه الخطّة، فكأني أستنـــزل العُصْمَ من

* سهو، والصحيح: "بهذه". (الناشر)

المَعاقل، أو أطلب الولد من الثاكل، أو أستقري الدُهْن من الحديد، أو أبغي الطِيب من الصديد، وأرى أني أرجع إليكم كالخاطئين، وأضيع وقتي في سؤالي من المحرومين. وإني لم أفعل ذلك لو لم يكن مقصدي إتمام الحجة، وإظهار الحق على الخاصة والعامة. وإني أدعوكم أوّلاً إلى المباهلة، فإن لم تقبلوا فأدعوكم إلى أن يجيئني أحد منكم لرؤية آيتي ويلبث عندي إلى السنة الكاملة، وإن لم تقبلوا فأدعوكم إلى المناضلة في العربية، بالشريطة المذكورة والآتية، وإن لم تستطيعوا فُرادى فُرادى، فما أضيّق الأمر على من عادى، بل آذن لكم أن يجلس بعضكم بالبعض كالناصرين.

ثم اعلم أيها الشيخ الضال، والدجال البطّال، أن الثمانية الذين هم ثمار عُودك، ووَقودُ وُقودِك، الذين أُدخلوا في التسعة المخاطبين، فمنهم شيخك الضال الكاذب **نذيرُ المبشِّرين**، ثم الدهلوي **عبد الحق*** رئيس المتصلفين، ثم **عبد الله** التونكي، ثم **أحمد علي**

---

* **الحاشية**: هذا الرجل لا يحسب العربية المباركة أُمَّ الألسنة، بل هي عنده مستخرجة من العبرية، التي هي لها كالفُضلة، ويستيقن أن إثبات هذه الخطّة عُقدة مستصعبة الافتتاحَ، أو كزَنْدةٌ مستعسرة الاقتداح، مع أنّا فرغنا من فتح هذا الميدان في كتابنا "**منن الرحمن**"، وسوف يُشاع في الديار والبلدان، فيومئذ تَسوَدّ وجوه المنكرين. وإنّا نُصرنا في أفكارنا، وأُيّدنا في أنظارنا، من الله رب العالمين. ودُسْنَا فيه كلَّ دوْسٍ الذين يقولون إن العربية ما سبق غيره بطَوْس، بل هي كاللباس المستبذَل أو الوعاء المستعمل، وكشيء هو سَقَطٌ صلفة غيرُ مُعين.

وإنّا أثبتنا دعوانا حق الإثبات، وأرينا الأمر كالبديهيات، مصيبين غيرَ مُسْقطين. فيا حسرة على وَهْنِ آراء علمائنا الجهلاء! إنْ هم إلاّ كالعجماء، ولا يدرون مناهَج تحقيق

الأشياء، وما كانوا متدبرين. كثرت البدعات وعمَّ البلاء، وكلَّ طرف فتنةٌ صَمّاء والعلماء السفهاء، فارحَمْ عبادك يا أرحم الراحمين.

وأما سبب هذا الخطأ الأزحل، فاعلم أنهم قوم رغبوا في فُضالة المآكل، وما جاهدوا لتجديد المنهل، وما حبسوا أنفسهم على معارك التحقيقات، بل رضُوا كطبائع خرقاء بالتقليدات، وأطلقوا جُرْدَ الإمعان والإثبات، كالمتغافلين غير مبالين. وإنا إذا فحصنا حق الفحص الدقيق، وبلّغنا الأمر إلى أقصى مراتب التحقيق، فانكشف أن الألسن كلها مأخوذة من العربية، ومستخرَجة من خزائن هذه اللهجة، والآن موجودة كالوجوه الممسوخة المغيَّرة الملوَّحة، وكالمجروحين المضروبين. وقد بُدّل نظامها، وغُيّر موضعها ومقامها، وأُخرِجَت من جواهر منتظمة، وسلسلة ملتئمة، وتاهتْ كالمتفرّقين. فكأن بعضها اليوم على رَباوة، وبعض آخر في وَهْد متّكئًا على هَراوة، والبعض لُفِّعَ وجهه برداء، ونُكِّرَ شخصه كغُرماء. ومنها ألفاظ كأنها دُفنت وبوعدت من الأتراب، وهيْلَ عليها الزوائد كهَيْلِ التراب، وإنّا نعرفها اليوم كرجال تكلموا في الأجداث، وبُعثوا بعد ما سُمِعَ نَعْيُهم بنوازل الانبثاث، أو كإلْف يُفقَد، ويُسترجَع له بعد مناحةَ تُعقَد، فخرجت الآن كنعش المَيت، أو الغلام الفارّ من البيت، أو النسيب المهجور من الأقارب، أو الابن الغائب الهارب. فمنها لفظٌ ما رأى انثلامَ حَبّة، وقفَل كما سافر بسلامة وصحة. ومنها ما رأى أثر الاستلام، حتى بلغ إلى الاحترام، وبكتْ عليه ورثاؤه كالنوادِب، بعد ما كان كأرباب المآدب، وصار كالجنائز بعد ما كان من أهل الجوائز.

**وما هذا من الدعاوي التي لا دليل عليها**، ولا من الأمور التي لا يوجد الحق لديها، **بل عندنا ذخيرة من هذه النظائر، ووجوه شافية** للمرتاب الحائر. والذين مارسوا اللغات وفتّشوها، واطّلعوا على عجائب العربية وشاهدوها، فأولئك يعلمون بعلم اليقين، ويستيقنون كعارف الحق المبين، أن العربية متفرّدة في صفاتها، وكاملة في مفرداتها، ومعجبة بحُسن مركَّباتها، ولا يبلغها لسانٌ من ألسُن الأرضين.

وأمّا اليونانية والعبرانية والهندية وغيرها، فتجد أكثر ألفاظها من قبيل البَرْيِ والنحت، وشتّان ما بينها وبين المفرد البحت. وذاك يدلّ على أن تلك الألسنة ليست من حضرة العزّة، ولا من زمان بدء البريّة، بل تشهد الفراسة الصحيحة، ويُفتي القلب والقريحة، أنها نُحتت عند هجوم الضرورات، وصيغتْ عند فقدان المفردات، وسُرقتْ مفرداتها من العربية بأنواع الخيانات، ففكِّرْ إن كنتَ من الطالبين.

وهذا أمر ثبت بدلائل واضحة، وبراهين ساطعة، **وعندنا ذخيرة عظيمة** من مفردات إنكليزية، وجرمنية، ولاطينية، وروسية، ويونانية، وهندية، وصينية، وفارسية، وألسُنٍ

أخرى من ديار بعيدة وقريبة، وقد أثبتنا أنها حُرِّفَت من كلمٍ عربية مطهَّرة، لو رأيتَها **لَمُلئتَ خوفًا ورعبًا**، ولأقررتَ بصدق كلامنا كالتائبينَ الراجعين. وقلتَ **سبحان الذي جعل العربية أُمَّ الألسنة، كما جعَل مكّةَ أُمَّ القرى**، وجعل رسولنا **أُمِّيًّا لهذه الإشارة**، وجعَلها خاتَمَ ألسُن العالمين، كما جعل رسولنا خاتَمَ النبيين، وجعل القرآن أُمَّ الكتب، وجعله صُحُفاً مطهَّرةً فيها كُتب الأولين والآخرين.

ثم سأل المعترض المذكور عن وجه تسمية بعض أسماء يحسبها جامدة. فاعلم أنها وكذلك أسماء أخرى ليست جامدة حقيقة، بل هو ظن الذين ما تدبّروا حق التدبر، واتبعوا روايات مسموعة، وحرّموا على أنفسهم أن يتعمّقوا كالمحققين. ألا يعلمون أن الله علّم آدمَ الأسماء ليُكمِّله علمًا وحكمة؟ فما ظنهم.. أَعَلّمه أسماءً مُهمَلة؟ أيعزُون إلى الله لغوًا خاليًا عن المعنى المكنون، ويجعلونه واضعَ لغوٍ؟ سبحانه وتعالى عما يظنون! ألا يعلمون أن الغرض من تعليم الأسماء كان إفادةً، والمُهمل لا يزيد معرفة ولا بصيرة، ويعلم كلُّ من له حظ من الدهاء **أن عدم علم الأشياء لا يدل على عدم الأشياء**، وإنّا لا نعلم منافع كثير من المخلوقات، مع أنه لا يُقال إنها خالية من النفع في علم رب الكائنات. بل الاعتلاق بمثل هذه الأوهام، من سير الجهلاء السفهاء اللئام، فاتق الله ولا تَعْزُ المهملات إلى منبع الحق والحكمة، فإن الله ما علّم آدم إلا معاني الأسماء التي هي مفاتيح الأسرار المخزونة.

ومن أجلى البديهيات أن الشريعة **الكبرى الأبدية**، والملّة **المحيطة الكاملة، تقتضي أن تنـــزل بلسان تكون أكمل الألسنة**، وأوسع الأوعية، ولا سيّما شريعة جاءت بكتاب فيه إعجاز البلاغة والفصاحة، وهو يطلب عبارات من مثله من جميع الألسن وكافّة البريّة. فأنت تعلم أن هذا الإعجاز تحتاج إلى كمال اللسان، ويقتضي أن يكون ظرفها وَسيعًا كمثل قُوى الإنسان. فإن اللسان كوِعاء لمتاع البيان، وكصدف لدُرر العرفان. فلو فرضنا أن لسانًا أخرى أكملُ من العربية، **فَلزمنا** أن نُقرّ أنها **أسبق** منها في ميادين البلاغة، **وأنسب** لحسن أداء المعارف الدينية، فكأن الله أخطأ في تركه إيّاه، وإنزاله القرآن في هذه اللهجة الناقصة. فتُبْ أيها المسكين ولا تتبع أهواء النفس الأمّارة، واتّقِ غشاوةَ الجهل والعصبية، ولا ترفع رأسك كالمجترئين.

وأمّا قولك أن لفظ التحت والتراب والميزاب أسماء جامدة لا يثبتُ اشتقاقها من الكتاب، فهذا خطأ منك ومن أمثالك، وفَسادٌ نشَأ من درايتكم الناقصة، لا من قصور شأن العربية المباركة الكاملة. أيها المسكين! إن لفظ التحت كان في الأصل طِيَّة، ومعناه

السهارنفوري من المقلّدين، ثم سلطان المتكبرين الذي أضاع دينه بالكبر والتوهين، ثم **الحسن** الأمروهي الذي أقبلَ عليّ إقبالَ مَن لبِس

---

ما كان تحت القدم وحاذَى الفوقَ جهةً، ثم بُدّل الطاء بالتاء والياء بالحاء بكثرة الاستعمال، ونظائره كثيرة، وشهد عليه كثير من الرجال ولو كنت من الغافلين.

ثم ليس لفظ التحت جامدًا كما هو زعمك من الجهالة، بل تصريفه موجود في كتب القوم وأهل هذه الصناعة. وفي الحديث: لا تقوم الساعة حتى تظهر التحوت.. أي قوم أراذل لا يؤبه لهم يكون لهم الحكم والجبروت، ويكونون من المكرمين.

وأما التُراب فاعلم أن هذا اللفظ مأخوذ من لفظ الترْب، وترْبُ الشيء: الذي خُلق مع ذلك الشيء عند أهل العرب. وقال ثعلب: ترْبُ الشيء: مثْله وما شابَهَ شيئًا في الحسن والبهاء. فعلى هذين المعنيين سُمِّيَ التراب ترابًا لكونها في خَلقها ترْبَ السماء، فإن الأرض خُلقت مع السماء في ابتداء الزمان، وتشابهَا في أنواع صُنع اللهِ المنّان. وكذلك خلَق اللّٰه سَبع سماوات منوّرة من الشمس والقمر والنجوم، وخلق كمثلهن سبعَ أرضين منوّرة من الرسل والأنبياء وورثائهم من أهل العلوم. ولعل لفظ "سبع أرضين" كان إشارة إلى عدّة الأقاليم، واللّٰه أعلم بما أراد من هذا التقسيم، وهو يعلم ما في العالمين.

وقال "ابن بُزُرج": كل ما يصلح فهو متروب بعد الإصلاحات، فالأرض تراب لما أصلحها اللّٰه بالعمارات والفلاحات. فخُذْ من هذين المعنيين ما هو عندك محبوب، واترُكْ سير المستعجلين.

وأمّا لفظ الميْزاب، فلو فكّرتَ فيه كأولي الألباب لكنتَ من المتندّمين. أيها المحروم من موائد الأدبَ! اعلم أن هذا اللفظ مشتقّ من لفظ الأَزْب، يُقال أزَب الماء: أي جرَى. فارجعْ يا خادِع النَّوكَى إلى "لسان العرب" أو كتب أخرى، ولا تُهلِكْ نفسك في غيابة جُبِّ الجاهلين.

وإني تركت بعض ألفاظك المعروضة خوفا من الإطناب لا من الاستصعاب، بل هي أظهَرُ اشتقاقًا عند أولي الألباب، ففكِّرْ كطلاب الحق والصواب، وما أظن أن تفكّر كالعاقلين. فسلام عليكم لا نبتغي الجاهلين.

ألستَ هو الرجل الذي قرأ عند ذكر بحث التوفي "تُوَفِّي ما ضمنتَ" استشهادًا، وما علم فَرْقَ التفعّل والتفعيل غباوةً وعنادًا؟ فهذا علمكم وفهمكم وفضلكم، ثم بهذا العقل كبركم وزهوكم وبخلكم وتكفيركم وتحقيركم. فنعوذ باللّٰه الحفيظ المُعين، مِن شرّ الخائنين الجاهلين المفترين. منه

الصفاقة وخلَع الصداقة، واعتلقتْ أظفاره بعِرضي كالذِياب، ومِخْلبُه بثوبي كالكلاب، ونطق بكَلِمٍ لا ينطق بمثلها إلا شيطان لعين. وآخرهم الشيطان الأعمى، والغُول الأغوى، يقال له **رشيد** الجنجوهي، وهو شقيّ كالأمروهي ومن الملعونين.

فهؤلاء تسعةُ رهطٍ كفّرونا، أو سبّونا وكانوا مفسدين. ونذكر معهم الشيخين المشهورين، يعني الشيخ **إله بخش** التونسوي، والشيخ **غلام نظام الدين** البريلوي، وإنهما من المعرضين، فندخلهم في الذين خاطبناهم ليكونا من المصدقين أو المكذبين. وما نقول فيهم شيئا إلا بعد أن يُرينا الله وهو أعلم بما في صدور العالمين، بيد أننا نجعلهما غرضًا لهذه المخاطبات، وندعوهما **للمباهلة أو رؤية الآية أو للمناضلة في عربي مبين**.

وأما الآخرون الذين سمَّوا أنفسهم مولويين، مع كونهم من الغاوين الجاهلين، فننـــزّه الكتاب عن ذكرهم ولا ننجّس الصحيفة من كثرة ذكر الخبيثين من غير ضرورة، وإنهم من الجاهلين المعلَّمين، الذين يقلّدون أكابرهم وليسوا من المتدبرين.

فأيها الشيخ إني أعلم أنك رئيس هذه الثمانية، وكمثلِ إمامٍ لتلك الفئة الباغية، وهم لك كالتلاميذ في الغواية أو كالمسحورين. فَأْتِني بخيلك ورَجِلك، واجمَعْ كلّ دجلك وانحَتْ أنواع الافتنان، وأْتِني مع جموعك من أهل العدوان، **وصُلْ عليّ كحبشيٍّ صال على كعبة الرحمن**، ثم شاهِدْ قدرة الله الديّان. فإن أعرضتم وحسرتم،

وواريتم الوجوه وفررتم، فتقع الحجة عليكم إلى أبد الآبدين، ويعرف الذين يلقَفون منك القول المجهول والهذيان المفتول، أنك كنت من الكاذبين. فيبكون عليك كما يُبكَى على الخاسرين، ويسترجعون كما يُسترجَع للمصابين، فتصبح كالمخذولين. فناجِ نفسَك في القبول أو الإعراض، مِن قبل أن تُذبح كالعِرباض، وتلحق بالملومين.

وقد سمعتَ أن الشريطة الأولى التي أُحكِمتْ للمناضلة، ووجبتْ لكل من قام للمباحثة، هو أن يأتي مناضِل بكتاب من مثل هذا الكتاب، النظم بعدّة النظم، والنثر بعدّة النثر، مع تسوية التوشية والاختضاب. فإن أتيتم بكتاب من مثل هذه الرسالة، وفعلتم ذلك **إلى شهرين** لإراءة الفضل والجلالة، فأجيئكم كالمعتذرين التائبين. وإن لم تقدروا فعليكم أن تقرّوا بأنه آية من آيات الرحمن، لا مِن فعل الإنسان، وما أشقّ عليكم بعد إقراركم إلا أن تصافوني مصدِّقين. ذلك خير الطرق وأحسن الانتظام، وفيه أمن للفريقين من تكاليف السفر ومتاعب ترك المقام، وحرج آخر لا بد منه للمسافرين. ثم إن اتفق بعده أنكم ظننتم لي الظنون، وزعمتم أنه ألّفه الشاميون، أو أعان عليه قوم آخرون، فأقبَلُ أن تناضلوني بالمشافهة، بعد أن تقرّوا بأنكم عجزتم من نوع تلك المقابلة، ولكم أن تقولوا إنّ هذا إنشاء الشاميين، ولا قِبَل لنا بالشاميين، أو تقولوا إن هذا من علماء آخرين، ولا طاقة لنا بهم إنهم من الأدباء الكاملين، أو تقولوا إنه من **المولوي الحكيم نور الدين**، فما لنا أن نناضل بهذا الفاضل الأجلّ، إنّا من الجاهلين الأميين. وإني بعده سأجيد قِبَلاً

مُشافِهًا، وأحسب هذا الأمر تافهًا، فتعرفونني بعد حين. إن الذين يكونون لله فيكون الله لهم. ألا إن أولياء الله هم الغالبون في مآل الأمر على المخالفين. كتب الله لأغلبنّ أنا ورسلي، إن الله لا يُخزي عباده المأمورين.

هذا شرط بيني وبينكم، فسنّوا أنفسكم. ثم أنتم تعلمون أن فضيلة العلماء باللسان العربية، وهي المفتاح لفتح أسرار العلوم الدينية، وهي مدار فهم معارف* الفرقانية، والذي ليس من نحارير الأدباء، ولا كمثل نوابغ الشعراء، فلا يمكن أن يكون من فحول الفقهاء، والراسخين في الشريعة الغراء، أو من العارفين الفقراء، بل هو كالأنعام، وأحد من العوام والجاهلين. وأما الرجل الذي يقدر على كلام غَضٍّ طَرِيٍّ في هذه اللهجة، ويسلك عند نطقه مسالك الفصاحة والبلاغة، ويعلم فروق المفردات وخواص التأليفات وكوائف الجُمل المركّبة، فهو الذي جعله الله رحيب الباع، خصيب الرِباع، في هذه الخزائن العلمية.

ومن ادعى أنه من الواصلين والفقراء العرفاء، وليس من عارفي هذه اللسان كالأدباء، ففَقْرُه ليس فقر سيد الكونَين، بل هو سواد الوجه في الدارَين. ولا تعجَبْ بهذا البيان، ولا تغضب قبل العرفان، فإن الذي يدّعي محبّة الفرقان، كيف يصدَأ ذهنه في هذه اللسان، وكيف تقاصَرَ مع دعاوي المحبة وشوق الجَنان، وكيف يمكن أن لا

* أي: فهم معارف الآيات الفرقانية. (الناشر)

يتجلى لقلبه لطف الرحمن، ولا يعلّمه اللهُ لسانَ نبيّه بالامتنان.

**ثم إنها معيار لحب الرسول والفرقان،** فإن الذي أحبَّ العربية فبحُبِّ الرسول ﷺ والفرقان أحبَّها، ومن أبغضَها فببُغض الرسول والفرقان أبغضَها، فإن المحبين يُعرَفون بالعلامات، وأدنى درجة الحبّ أن تَحُثَّك للمضاهاة، حتى تؤثِر طرق المحبوب وتجعلها من المحبوبات، ومن لم يعرف هذا الذوق فإنه من الكافرين في مشرب العاشقين. ومَن أحبَّ الفرقان وسيدنا خاتم الأنبياء، كما هو شرط المحبة والوفاء، فما أظن أن يبقى في العربية كالجهلاء، بل يقوده حبُّه إلى أعلى مراتب الكمال، ويسبق كلَّ سابق في المقال، ويصير نطقه كالدرة البيضاء، ويضمَّخ كلامه بطيب عجيب ويُودَع أنواعَ الصفاء، ففكِّرْ كالمحبّين. ولولا الحب لما أُعطيتُها، فمن الحب لقيتُها، فهذا آيةُ حُبّي من أرحم الراحمين. والحمد لله على ما أعطى وهو خير المنعمين.